سفير الله



عبد المنعم شميس



جمال الدين الأفغاني

عبد المنعم شميس

سفير الله

غضب شريف مكة على أحد المكيين المقيمين فى الآستانة وخشى هذا المكى على نفسه من تعقب الشريف له . فالتجأ إلى منزل السيد جمال الدين . معتصما به . فطمأنه السيد وهدأ روعه. غير أن اعتصامه هذا خلق للجواسيس شغلا يشتغلونه فجعلوا يطوفون بمنزل السيد ويراقبون اللاجىء المذعور . فكان السيد يرق له ويصحبه فى عربته أحيانا للتنزه . فقيل له يوما أبعد عنك هذا الرجل (يعنون المكى اللاجىء إليه) وأرح نفسك من مضايقة الجواسيس لك بسببه. فأجابهم متعجبا .. مالى وللجواسيس، هؤلاء سفراء الدول إذا لجأ إليهم لاجىء حموه من كل أحد حتى من هؤلاء الجواسيس وأنا (سفير الله) فى هذا البلد .. أفلا ينبغى أن يطرد هؤلاء الجواسيس عنى . . كما طردوا عن سفراء البشر .

من كتاب ((جمال الدين الأفغانى)).

للشيخ عبد القادر المغربى

المحتوى

تحية وعرفان

قبل أن يعبر رفاة السيد جمال الدين ممر خيبر في رحلة العودة الأبدية إلى أرض الأفغان التى أنبتته ثائرا حرا . كان ملك الأفغان محمد ظاهر شاه قد أشرف بنفسه على إعداد ضريح إمام المصلحين الثائرين فى العالم الإسلامى الحديث .

واستقبل الملك رفاة الشيخ فى إكبار وإجلال ، معبرا عن تقدير شعب الأفغان لأفكار أعظم أبنائه التى هزت الدنيا ، وحولت مسار التاريخ فى بلاد الإسلام .

فإلى الملك محمد ظاهر شاه تحية عاطرة من أحد مريدى الشيخ ، وعرفان بحسن الصنيع فى تمجيد الفكر الإسلامى الحر الذى تمثل فى تخليد ذكرى أبى الأحرار جمال الدين الأفغانى ، ورجاء فى أن تخصص جامعة (كابل) كرسي الفلسفة الإسلامية الحديثة لدراسة أفكار جمال الدين الذى يقف ضريحه شامخا وسط أبنيتها .

عبد المنعم شميس

السفارة الخالدة

بقلم : سعادة محمد موسى شفيق

سفير الافغان فى القاهرة وبيروت

يقول الشاعر الفارسي الكبير حافظ الشيرازى عن الحب «انها قصة نقرأها ونسمعها بنفس الحروف والكلمات على مر آلاف من الأجيال . . ومع ذلك فإنها قصة لن تتكرر ولن تمل » .

جال فى خاطرى هذا الذى قاله شاعر الحب الخالد وأنا أقرأ آخر ما كتب عن الداعية الأكبر ، عن الشعلة التي لن تنطفىء ، عن الفيلسوف الكبير ، عن بانى نهضة الشرق ، عن أبى الثوار ، وأخيرا عن سفير الله السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى ، فحياة الرجل وخاصة ذلك الجزء الذى ألهم الكتاب والباحثين بأبحاث ورسائل ومقالات تكاد لا تحصى ، قصيرة عندما نقيسها بمقاييس الطول التى تقاس بها الأعمار . حياة عاشها جمال الدين على حد قول الشاعر الأمريكي وايتمن «كشمع أنير من كلا الجانبين» . وعندما نقرأ أى جديد يكتب عن هذه الحياة نكاد لا نجد فى ما يسرده الكاتب من الحوادث مالم نقرأ عنه من قبل . ومع ذلك نحس بشىء جديد يدخل فى قلوبنا ويغمرها بنور من الإيمان ، بحب للتضحية فى سبيل المبدأ وبإحساس بالكرامة لا يضاهيه إحساس .

ومن قراءتى لأوراق هذا الكتاب ، ومن حديثى مع كاتبه الأبى المؤمن حول السيد جمال الدين ، طارت ذاكرتى عبر السنين إلى اليوم الذى كنت فيه طالبا فى مدرسة إبتدائية على مقربة من المدينة الأثرية المعروفة بجامعتها الفنية القديمة (كندهارا) وهى نفس المنطقة التى يوجد فى مقاطعتها وادى (كنر) الجميل مهبط الرأس لإمام المناضلين جمال الدين الأفغانى . وذات يوم أعلنوا فى مدرستنا

بما خفقت له القلوب . فقد كان رفاة جمال الدين على وشك أن يدخل حدود بلاده عن طريق ممر خيبر متوجها نحو العاصمة كابل . ورأيت الشعب يلتف به، والجيش بكل فئاته يحييه تحية عسكرية . ورأيت رئيس الوزراء يضع التابوت على كتفه ينقله من السيارة الحاملة له إلى أرض الحديقة التى بات فيها ليلة على ضفاف نهر كابل وعلى مقربة من نهر كنر الخالد . وبت أنا تلك الليلة لا تفارقنى صورة البطل الثائر الذى انحنت له الرؤوس وهو رميم ؛ وذلك على قلة ما كنت أعرفه عن حياة الرجل فى ذلك الزمان . ومنذ ذلك اليوم وأنا أتابع ما نشر عن الإنسان الذى أصبح أسطورة فى حياته وهو حى يرزق ، بلغات عديدة فى بلاد مختلفة . حتى حصل لى أخيرا شرف الاطلاع على أحدث ما ألف عنه: « سفير الله جمال الدين الأفغانى » . ولقد انتهج كاتبه الكريم الأستاذ عبد المنعم شميس فى دراسة شخصية الزعيم الكبير وحياته نهجا جديدا مستقى من المناهج العلمية التى جاءت بها الثقافة الحديثة السائدة فى أيامنا هذه . وفى الكتاب أبحاث عولجت بطريقة جديدة تعرض فيها المؤلف إلى عدد من المسائل الهامة عن أفكار جمال الدين ومعتقداته بأسلوب علمى قيم ولا شك أن الدفاع عما يراه الكاتب الفاضل فى هذه المسائل من آراء فهو نفسه أدرى به وأقدر . أما أنا فلا يسعنى إلا الإشادة بمجهوده المنبعث عن الإيمان أولا وعن العلم ثانيا .

وما دام هناك كفاح لأجل الحق أينما يكون ، وما دام هناك دعاة للإصلاح فى الشرق بل وفى العالم فستظل قلوبنا تخفق كلما نرى إسم أبى المصلحين مكتوبا على أى أثر عنه وعن حياته وآرائه ورسائله .

وعندما نرى عدوا صهيونيا جاثما على أرض المسلمين نشعر بأننا أحوج فى يومنا هذا إلى رسالة سفير الله وإلى سفارته الإلهية الخالدة حتى من اليوم الذى عاش فيه .

محمد موسى شفيق
سفير الافغان فى القاهرة
وبيروت

٢١ يونيو ١٩٦٩
شارع استانبول ــ الاسكندرية

كلمة قبل التقديم

تناول بعض الكتاب سيرة السيد جمال الدين الأفغانى بالنقد ، وليس هناك عيب فى أن ينقد العظماء من الرجال ، أو يتحدث الكتاب عن أفكارهم وآرائهم. ولكن أحد النقاد سرعان ما اندفع وادعى أن الأفغانى كان رجعياً عميلا للاستعمار لأنه جاهر بفكرة الجامعة الاسلامية وروج لها .

وليس المهم هو مناقشة رأى الناقد ، لأننا نقرأ فى هذه الأيام — وقد قرأنا فى السنوات الأخيرة — آراء كثيرة لكتاب كثيرين وجدوا عند أنفسهم الجرأة والجسارة على الدخول فى مجال البحث التاريخى على غير علم ، وبغير أدوات البحث العلمى ، ولذلك فاننا لا نلوم كاتبا ادعى على الأفغانى هذا الادعاء ، لأنه واحد من عشرات كتبوا عن عظماء الشرق كلمات سيئة ، ولأن مهاجمة الأفغانى عمل لاطائل وراءه ، فقد دخل هذا الرجل التاريخ من أوسع أبوابه عملاقاً ، نقى الثوب ، طاهر اليدين . وكان له فضل يقظة الشرق وثورات الشرق ضد الاستعمار سواء رأى بعض الكتاب هذه الحقيقة أم لم يروها .

هناك إجماع عند أصدقاء الأفغانى وأعدائه على أنه الفيلسوف الثائر الحكيم فى العصر الحديث عند أهل المشرق .

وقد هوجم فى حياته وبعد مصرعه هجمات أشد مما نسمعه الآن ، فقالوا إنه زنديق كافر ، وكانت تلك التهمة فى عصره أشد خطراً مما يلصق به اليوم من رجعية .

وطاردت أفكاره دول لا أفراد ، وكان فى مقدمتها بريطانيا العظمى .

ثم كانت نهايته المعروفة فى الآستانة حيث مات مسموماً على أيدى جواسيس السلطان العثمانى ، ودفن فى مقبرة ضائعة ، بعد أن شيع جنازته شخصان أحدهما ملازمه فى أيام مرضه ، وثانيهما صديق جرىء .

ويبقى من كل هذا الكلام مهاجمة الأفغانى واتهامه بالرجعية ، لأنه دعا إلى الجامعة الاسلامية .

هذا هو جوهر القضية التى أثيرت فى السنوات الأخيرة . وانقسم الكتاب حولها إلى قسمين،رأى أولهما أن الأفغانى لم يكن مفكرا إسلاميا على الاطلاق، ورأى الفريق الثانى — كما نسمع اليوم — أنه مفكر رجعى يريد أن يعود بالناس إلى أفكار الاسلام .

ليس مفكراً إسلاميا

وبغير تعقيد أو لجوء إلى سراديب خلفية ، أحب أن أحلل رأى الفريق الذى ادعى على الأفغانى أنه لم يكن مفكرا إسلاميا ، فقد ظن هذا الفريق أن تحرير أفكار الأفغانى من الصبغة الاسلامية يسلكه فى سلك التقدميين بغير عناء.

والخطأ المنهجى فى هذه الطريقة من الفكر والبحث هو أن أصحابها أغمضوا عيونهم على حقائق هامة لا يمكن وضعها فى منطقة الظلام ، أو إلقاؤها فى مخزن مهجور لا يراه أحد، وهذه الحقائق تضع الأفغانى أولا وقبل كل شىء فى طليعة المفكرين الاسلاميين فى العصر الحديث .

. كانت محاوراته مع الفيلسوف الفرنسى —أرنست رينان— فى باريس تدور حول الدفاع عن الاسلام الذى اتهمه رينان بأنه سبب تأخر الشرق .

. كانت مجلته العروة الوثقى مجلة سياسية إسلامية فى كل اتجاهاتها وأفكارها .

. كان تلميذه الأول محمد عبده اللسان الناطق بأفكار تجديد الاسلام على منهج الأستاذ وعلى هدى أفكاره .

. كان اتصاله بالسلطان العثمانى ومحاولة تجميع العالم الاسلامى فى ظل الخلافة الاسلامية عملا إسلاميا سياسيا أراد به مقاومة النفوذ الاستعمارى الغربى عن طريق وحدة سياسية شاملة تجمع دار الاسلام تحت لواء واحد .

. كان اتصاله بقيصر روسيا محاولة سياسية لمنع الصدام بينها وبين البلاد الاسلامية ، وإيجاد تحالف يقف فى وجه المد الاستعمارى الغربى .

لقد هاجم الأفغانى أفكار داروين وأفكار كارل ماركس ، ولعله كان أول شرقى هاجم أفكار هذين العالمين اللذين أثرا فى الفكر المعاصر تأثيراً خطيراً .

هذا هو السبب

وقد سبب هجوم الأفغانى على داروين وماركس عقدة أمام الباحثين التقدميين ، فوقفوا أمام الصفحات القليلة التى كتبها مذهولين ، وهم معذورون فى ذلك فقد عجز كتاب غربيون أيضا عن فهم مقاصد الأفغانى وقال بعضهم إن رسالة « الرد على الدهريين » مبهمة غامضة .

إننا لا نستطيع فهم أفكار الأفغانى بغير أدوات البحث العلمى المتقصى ، ولذلك أرانى فى حاجة إلى توضيح رأيه فى أفكار داروين التى سيطرت على المثقفين المصريين فى أوائل هذا القرن .

لقد استخدم الأفغانى المنطق فى معارضة آراء داروين على طريقة الفلاسفة المسلمين ، وجعل المشاهدة والملاحظة عنصرين أساسيين فى إدارة المناقشة مع داروين والطبيعيين استنادا إلى حقيقة أولى يؤمن بها كما نزلت فى القرآن وهى أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان .

وقد أوضح هذه الحقيقة — توماس هنرى هكسلى — العالم البريطانى الشهير فى حفل إزاحة الستار عن تمثال داروين فى معهد الدراسات الطبيعية فى لندن ، حيث أكد أن داروين لم يصل إلى نتائج علمية فى أبحاثه عن النشوء والارتقاء .

وبذلك نستطيع أن ندرك فى وضوح أن الأفغانى الفيلسوف المسلم قد سبق هكسلى فى اكتشاف حقيقة مذهب داروين لا عن طريق الإيمان بما جاء فى القرآن فحسب ، بل عن طريق المنهج العلمى فى التفكير الفلسفى أيضا ، وهو منهج يطالب به القرآن وقد طبقه الفلاسفة المسلمون منذ قديم .

ولذلك لم تكن معارضة الأفغانى لأفكار داروين إلا امتدادا لأفكار فلاسفة المسلمين الذين وضعوا أصول العلم اليقينى ، وربطوا بين العلم والدين ، واستطاعوا تحليل ظواهر الوجود على أساس من العلم الذى وصلوا إليه فى عهودهم .

الأفغانى معارضاً للماركسية

وقد عارض الأفغانى الماركسية فى سطور قليلة، وبين ثنايا الكلام فى رسالته التى كانت أصلا فى الرد على مذهب الطبيعيين .

كان الأفغانى من دعاة الاشتراكية وكتاباته عنها موجودة ، بل إن مدرسته الفكرية كانت ضد الرأسمالية .

ولم يقف الأفغانى ضد الجانب الاقتصادى من الفكرة الماركسية ، ولم يتحدث عنه لأنه هو نفسه كان يدعو إلى الاشتراكية ، وقد سئل مرة عن مقياس الرأسمالية فقال أنها مسألة نسبية، فلو وجد فى قرية ألف فلاح لايملكون شيئاً ، ووجد واحد يملك مائة جنيه لأصبح هذا الواحد رأسمالياً .

إن الأفغانى يعارض الاتجاه اللاديني فى الماركسية.وقد أكد التطور التاريخى للماركسية أن هذا الاتجاه لم يعد يدخل فى حساب الاشتراكية على اختلاف اتجاهاتها ، بل أنه ليس موضع نقاش بين الكتاب التقدميين ، أو الدارسين للفكر الاشتراكى أو المنفذين لاتجاهات الاشتراكية فى مختلف الدول الاشتراكية .

لقد سقطت فكرة ماركس عن الدين من تلقاء نفسها مام التقدم العلمى المعاصر ، ولم يعد التدين أفيونا للشعوب ، بل أن الدول الاشتراكية التى اعتنقت الماركسية لم تعارض الدين ، وتركت المساجد والكنائس للناس يتعبدون فيها كما يشاءون، كما أن دولا رأسمالية حطمت كل القيم الدينية فى بلادها تحت وطأة الترف والفساد والتعفن الاجتماعى .

هل الأفغانى رجعى ؟

بعد كل هذا أستطيع أن أقول أن الفكرة الثانية التى اتهمت الأفغانى بأنه رجعى جاءت نتيجة حتمية للفكرة الأولى التى حاولت إخفاء إسلامية الأفغانى.

وأمام هذا التشكك ، بدأ بعض الكتاب التقدميين ينكشون فى التاريخ على غير هدى وبغير علم،فوقفوا أمام فكرة الجامعة الإسلامية التى دعا إليها الأفغانى.

وما دامت الجامعة الاسلامية كانت ترتبط بالخلافة العثمانية التى كانت قائمة فى ذلك الوقت، وما دام مفهوم الخلافة العثمانية قد أصبح يحمل دلالات الاستعمار الأجنبى للبلاد العربية، وما دام الأفغانى قد حمل هذه الدعوة فإنه من دعاة الاستعمار وهو رجعى وعميل للسلطان العثمانى ؛ هذا هو المظهر المنطقى للفكرة. ولكن هل

هذه هي الحقيقة .. وهل هذا هو التاريخ ؟ وهل نصدر الأحكام هكذا ببساطة في القضايا الخطيرة التي تحدد مكان الكفاح الحاضر الذي نصطلي بناره ؟

إن هذه الآراء تسيء إلى الفكر التقدمي المعاصر وقد كان الأفغاني رائده الأول فما عرف عنه تعصب ديني بل عرفت عنه عصبية دينية .

إن الرجل الذي سمع زنديقا فارسيا يدعى — ميرزاباقر — ينال من شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم فأمر أتباعه أن يضربوه فضربوه حتى كاد يهلك .

هذا الرجل هو الذي احتضن « أديب اسحق » وهو مسيحي ودفعه إلى إصدار جريدة يومية ثورية كان هو نفسه يكتب بعض مقالاتها تحت اسم مستعار هو « المظهر بن وضاح » وهو الذي احتضن « يعقوب صنوع » اليهودي ودفعه إلى إصدار مجلاته الثورية التي هاجم فيها إسماعيل خديو مصر ونفي بسببها من مصر .

كان التعلق بالجامعة الإسلامية هو الأمل الأخير في مقاومة الاستعمار الغربي الذي امتد من البلاد العربية حتى الهند .

ولم يكن جمال الدين الأفغاني هو مخترع الجنسية الإسلامية بل إنها من صميم نظام الحكم الإسلامي فبلاد المسلمين هي دار الإسلام وكل من يسكنها يحمل جنسيتها مهما كانت ديانته .

حدث أن سلطان مصر — سيف الدين قطز — بدأ يجمع الجيوش ويستعد للحرب وكان قائده — الظاهر بيبرس — يجند المسلمين والأقباط على السواء للوقوف ضد غزو التتار .

واشترك المسلمون والأقباط في الحرب ضد التتار تحت شعار واحد ونداء واحد صاح به بيبرس في ميدان القتال وكان هذا النداء هو : وا إسلاماه .

وناحية أخرى يجب أن نبينها بوضوح وهي أن الدول الاستعمارية كانت

تملك مخططا هدفه الأول هو تحطيم القيم الإسلامية ومحاولة إزاحة الإيمان بمبادىء الإسلام حتى تستطيع السيطرة على بلاد المسلمين .

وقد ادعى — رينان — أن الإسلام هو سبب تأخر المسلمين ثم تابعه — لورد كرومر فى مصر — فى هذا الإدعاء ودارت مناقشات طويلة حول هذا الموضوع كان هدفها الأول من ناحية الاستعماريين هو القضاء على أفكار التقدم الإسلامى والحضارة الإسلامية .

لم تكن المسألة دينية إلا فى ظاهرها ، أما باطنها فكان رغبة ملحة فى القضاء على التراث الإسلامى والتشكيك فيه .

ولذلك ظهرت فى بيروت ظاهرة هامةوخطيرة فقد تبنى المسيحيون فى لبنان إحياء التراث العربى الإسلامى ، وكانوا أسبق فى الحفاظ عليه من المسلمين ، وتزعمالشيخ ناصيف اليازجى فكرةإحياء التراث وكان هونفسه يحفظ القرآن .

وفى اسطنبول كان أحمد فارس الشدياق يشارك أيضا فى إحياء التراث ، وقد طبعت مطبعة جريدة الجوائب عددا كبيرا من كتب العربية .

كما أن العالم المسلم الشيخ يوسف الأسير اشترك فى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية .

لم تكن فكرة الجامعة الإسلامية مرفوضة فى ذلك العصر بل كانت مطلوبة وقد حاول زعماء العرب بمختلف الوسائل التأثير على الترك لإيجاد تحالف عربى تركى يقف ضد الاستعمار فى ظل الخلافة الإسلامية ولكنهم فشلوا .

التتريك والتعريب

وكان جمال الدين الأفغانى يدعو إلى استعراب الترك ، وقد حدث السلطان عبد الحميد فى ذلك ، وقال له إن الترك لو استعربوا فىظل القرآن لأصبحوا أكبر

قوة فى الشرق وأغمض السلطان الداهية عينيه عن هذه الحقيقة . واستمر فى عملية أخرى مضادة لها هى محاولة تتريك العرب .

كانت فكرة جمال الدين الأفغانى عن الجامعة الإسلامية مرتبطة بظروف تاريخية معينة ولها ملابسات معقدة وقد اعتنق هذه الفكرة الزعيم المصرى — مصطفى كامل — أيضا ، وحاول عن طريقها مكافحة الاستعمار البريطانى فى مصر .

وحين ظهر أن تحقيق الجامعة الإسلامية فى تلك الظروف كان صعب المنال ، ظهرت فكرة — مصر للمصريين — فى ظروف تاريخية أخرى ، ثم انقضت هذه الفكرة أيضا بظهور التيار القومى العربى .

ولذلك فإن الحكم على الاتجاهات السياسية يجب أن يتم داخل نطاق الظروف التى أنبتتها ، ولا يجوز أن نحكم بأفكار اليوم على أفكار سابقة .

هل نحن فى حاجة إلى جامعة إسلامية ؟

إن فكرة الجامعة الإسلامية هى التقدمية بعينها ، وقد كان الإسلام سابقا إلى أفكار الاشتراكية ، داعيا إلى الاشتراكية .

إننا اليوم فى حاجة إلى إسلام حقيقى يقف فى وجه الدعوة الصهيونية وضد العدوان الصهيونى .

إن الصهيونية تحاربنا بالعقيدة ونحن ليس لنا إلا عقيدة واحدة هى الإسلام ولن ننتصر على الصهيونية إلا بالإسلام .

لنتذكر اليوم أن جيوش مصر التى قادها الظاهر بيبرس لمحاربة التتار كان نداؤها الوحيد :

— وا إسلاماه . . . (١)

---

(١) مقال نشر بجريدة الجمهورية يوم الخميس ٥ ديسمبر ١٩٦٨ .

تقـــديم

لم يشهد العالم الإسلامى فى تاريخه الحديث رجلا مثل جمال الدين الأفغانى ، فهو صاحب السلطان الذى وصل إلى الوزارة فى بلاد الأفغان وإلى منصب مستشار الشاه وفى إيران ، وهو الفيلسوف الزاهد الذى لا يملك غير ثيابه فى القاهرة . وهو الذى يتنازعه الفرس والأفغان بعد موته فيدعى كل فريق أنه من بلده، تشرفا به حين تشرف البلاد بأمثاله من الحكماء الخالدين . وهو العربى شريف النسب حين تعد الأنساب فتمتد أرومته إلى الحسين بن على رضى الله عنهما .

كتب سيرته كتاب من الأعلام ، وتحدث عنه باحثون من مختلف الأمم ، فردوا إليه فضل النهضة الإسلامية الحديثة فى كل قطر إسلامى . فما كتب كاتب عن تقدم المسلمين إلا ذكره غير غافل عن رسالته التى طوفت بالمشرقين.و أيقظت أمما من سباتها . فهو القائل لأهل الهند تحريضا لهم على الكفاح ضد الإنجليز :

ـــ لو كنتم سلاحف وأحطتم بالجزيرة البريطانية لأغرقتموها فى اليم . . .

وهو القائل لأهل مصر فى عهد إسماعيل متحدثا إلى فلاحيهم :

ـــ أيها الفلاح . . أنت تشق الأرض بمحراثك فمتى تشق قلب ظالمك ؟

وجمال الدين الأفغانى هو السيد لقباً من ألقاب الشرف ، وحقيقة من حقائق الوجود الإنسانى . مضى يشق الأرض وحيداً وكأنه جيش ، ما خفض جناحه لذل ، وما طأطأ رأسه لملك أو خليفة ، وما تلجلج لسانه أمام طاغية .

فى عينيه بريق ذكاء وقوة وإصرار ، وفى عقله نبع حكمة وفلسفة ، وفى قلبه إيمان لا يزعزعه وهم ، ولا تشوبه شائبة شك .

الكلمة عنده قداسة ، والفكرة من عقله شهاب يشق الظلمات ، والرأى فى عرفه حكمة بليغة تربط وجود الإنسان بوجود الله .

وقد استطاع هذا الفيلسوف الفذ ربط الدين بالحياة ، وفتح أبواب التقدم.

أمام الشعوب الإسلامية فيما ترك من آثار عظيمة فى حياة المسلمين حتى اليوم .

ولم تقتصر الآثار الفكرية للأفغانى عند الدين وتفسيره ، وبيان حقائقه ، ولكنها امتدت إلى المجالات السياسية والاجتماعية،بما كان له أكبر الأثر فى التقدم الفكرى الحديث .

وقد اشتغل جمال الدين بالسياسة والحرب والدين والفكر ، وكان نموذجا رائعاً من نماذج الفكر الحر الذى يؤمن بالتقدم ، ويدعو إلى الحرية ، ويحاول إخراج العقول الجامدة من جمودها عن طريق التفكير الحكيم السليم بعيداً عن التعصب الممقوت لرأى من الآراء أو فكرة من الأفكار .

ولم يقف جمال الدين موقف المتزمت فى دعوته الفكرية الحرة ، بل كان نموذجا رائعاً من نماذج التسامح الدينى فامتدت دعوته وأفكاره إلى غير المسلمين، وكان منهم تلاميذ حملوا رسالته ، وآمنوا باتجاهاته. على رأسهم (أديب أسحق) ، الكاتب الشاعر الشهير .

وآمن الأفغانى بالكلمة الشريفة إيمانا عميقا واعيا ، فكان حكيما فيلسوفا يلقى أحاديثه للناس فى بساطة ورقة ، ويكتب مقالاته فى وضوح فكرى بديع. كما كان يحرض تلاميذه على إنشاء الصحف ، ويشارك فى تحريرها ، فأنشأ جريدة العروة الوثقى مع تلميذه محمد عبده داعيا إلى إيقاظ الشرق من خموله .

ولذلك أصبحت شخصية جمال الدين الأفغانى من الشخصيات المؤثرة فى حياة الشعوب الإسلامية فى هذا العصر ، وكان نصيب الشعب العربى من أفكار جمال الدين عظيما ، فقد كان تلميذه الأكبر الإمام محمد عبده رائداً من رواد النهضة العربية .

وكان مقام الأفغانى فى مصر فترة من حياته مقترنا بتحول فكرى خطير فى السياسة والأدب والاجتماع . ذلك أنه عاصر إسماعيل وظهور توفيق على مسرح السياسة المصرية فى سنوات الصراع بين الشعب والقصر، فأذكى الأفغانى هذا الصراع بنور فكره وانحاز بطبيعته إلى الشعب فلقن تلاميذه دروسا فى مفاهيم الحرية ، وجعل منهم زعماء فى مقاومة الظلم والاستبداد .

كما كانت بشائر النهضة الأدبية الحديثة قد بدأت فى مجالات الشعر والنثر والنقد فظهر محمود سامى البارودى مجدداً للشعر العربى بعد ركود طال أمده ، وظهرت أقلام ناثرة جديدة بعدت عن السجع والمحسنات البديعية الثقيلة وسلكت طريقا قويمة للتعبير بالكلمة السهلة الواضحة ، وكان على قمة هذه الأقلام : محمد عبده وعبدالله فكرى وقاسم أمين وغيرهم من أعلام الكتاب .

كما ظهر فى مجال النقد الأدبى الشيخ حسين المرصفى صاحب كتاب « الوسيلة الأدبية » الذى يعتبر بداية النهضة النقدية فى العصر الحديث .

وإلى جانب ذلك ظهرت النهضة الاجتماعية ممثلة فى أفكار قاسم أمين بالنسبة لتحرير المرأة ، وكانت وليدة تفكير مشترك بينه وبين الإمام محمد عبده .

فى هذا الجو المهيأ الذى لاحت بعض بوادره أثناء إقامة الأفغانى فى مصر ، أو بعد خروجه منها ، كانت أفكار جمال الدين تعمل كالمحرك لهذا التيار الفكرى الثورى فى كل الاتجاهات السياسية والاجتماعية والأدبية .

وكانت مصر هى البيئة الصالحة لزراعة الأفكار الثورية الجديدة ، فنجح الأفغانى فكراً وعقيدة فى مصر ، وفشل فى غيرها من البلاد التى عاش فيها ، ووئدت أفكاره مع جسده فى الآستانة عاصمة الخلافة الإسلامية ، الممثلة للرجعية الصدئة المتعفنة ، ولكن هذه الأفكار عاشت فى مصر وشاركت بقوة وإيجابية فى تغذية التيار الثورى الذى اشتعل منذ قيام الثورة العرابية .

وقد عشت مع أفكار الأفغانى سنين طويلة . وسايرت نهجه فى الإصلاح الدينى والسياسى والاجتماعى والأدبى خلال كتاباته وماكتبه عنه تلاميذه الخلصاء . وشاءت المقادير أن أترك الكتابة عنه فترة طويلة من الزمان مع رغبتى فى ذلك ، وحبى لشخصيته ، وإيمانى بمثله وأهدافه . ثم عدت إليه بقلبى محاولا كتابة صورة عنه ، بعد أن ارتسمت هذه الصورة فى خيالى فترة طويلة من الزمان .

وإنى لأرجو أن يجد القراء فى هذا الكتاب ما رجوته حين أمسكت بالقلم لأخط حروفه .. وهذا الرجاء هو إبراز صورة مناضل مؤمن شريف باع دنياه من أجل سعادة الناس ورفاهية الشعوب ومات شهيداً قتيلا فى سبيل كفاحه ضد الاستبداد والطغيان .

القاهرة — ابريل ١٩٦٩ عبد المنعم شميس

رحلة الفيلسوف

١ ـ مولده ونشأته

وسط جبال الأفغان السامقة ، ومن حول العاصمة كابل ، ترقد القرى الأفغانية العديدة ، وتطبع أهلها بطابع البيئة الجبلية الوعرة ، فهناك صعوبة فى الحياة ، وصعوبة فى المواصلات ، ولا يصل الإنسان إلى شىء إلا بعد مشقة تحتاج إلى صبر. وقد جبل الناس فى هذه البلاد على الأنفة والعزة ، رؤوسهم مرفوعة كقمم الجبال ، وقلوبهم صلبة لا تهزها الرياح العاصفة ، وأفكارهم صافية كالسماء حين تشرق عليها الشمس .

ومن حول جبال الأفغان دارت معارك ، وسقطت دول ، وتسلط مستعمرون وطغاة على بلاد الهند وفارس ، وظلت الجبال حائلا بين الغزاة وبين هذه القرى الأفغانية ، فحفظت لها الطبيعة استقلالها ودربت أهلها على الوقوف ضد الغزاة فوق مشارف تلك الجبال .

ومنذ وصلت دعوة الإسلام إلى تلك الجبال كان لها قبس دائم من نور القرآن ونور السنة المحمدية ، وحمل أهلها الرسالة فى إيمان عميق وكان فيهم أعلام من العلماء .

ومن تلك القرى الأفغانية قرية (أسعد آباد) التى تبعد عن كابل بمسافة ٢٥٠ كيلو متراً . وقد عاشت فيها أسرة شريفة النسب عالية القدر ، موفورة الكرامة ، وكان من أبناء هذه الأسرة السيد صفدر(١) ، وهو رجل شريف ، يمتد نسبه إلى السيد على الترمذى المحدث المشهور ، ويرتقى إلى الحسين بن على بن أبى طالب حفيد الرسول .

ولد لهذا الرجل طفل عام ١٢٥٤ هـ (١٨٣٨ م) فاحتفلت به عشيرته الكبيرة التى بلغت المنزلة العليا فى قلوب الأفغانيين لحرمة نسبها . وكانت تحكم منطقة من (كونر) فى بلاد الأفغان حتى سلبها منها الملك (دوست محمد خان) وأمر بنقل السيد صفدر وبعض أخوته إلى مدينة كابل . وكان الطفل قد بلغ الثامنة من عمره .

---

(١) اسم (صفدر) من الأسماء المعروفة فى بلاد الأفغان حتى اليوم ، ويقال ان أحد أبناء الحسين رضى الله عنه كان اسمه (صفدر) .

وقد اختلف الرواة حول مكان مولد هذا الطفل الذى طبقت شهرته الآفاق بعد سنوات . فادعى بعض الفرس أن جمال الدين ولد فى قرية اسمها (أسد اباد) بالقرب من همدان بايران وشكك استشرق الأستاذ ا . ج براون فى نسب الأفغانى فقال : إن جمال الدين أراد أن يعرف بأنه أفغانى ليسهل حشره فى زمرة السنيين من المسلمين وليتخلى عن الحماية الفارسية التى كان يشك فى قيمتها(١)

ولكن جمال الدين نفسه اعترف بأنه أفغانى المولد والجنسية مما يقطع على المتشككين طريقهم ، فهو أدرى بحسبه ونسبه، كما أنه لم يكن يحفل كثيراً بانتسابه إلى وطن إسلامى معين بل إنه اعتبر دار الإسلام فى كل بقعة من بقاع الأرض داراً له ، وسيان عنده أفغانستان أو إيران أو غيرها من بلاد الإسلام . ولذلك فإن إقراره بأفغانيته يؤكد هذه الجنسية لأن جمال الدين نفسه هو صاحب الاعتراف.

وقد أثارت مسألة جنسية جمال الدين مشاكل عديدة لعدة سنوات ، وتحدث عنها معظم الذين ترجموا حياته ، ولكن الذى تأكد بعد ذلك هو أنه أفغانى بغير شك وقد نقل جثمانه من مقبرة العلماء فى الآستانة إلى ضريحه فى كابول بعد منازعات طويلة بين الفرس والأفغان فكل فريق منهما ادعى نسب جمال الدين إلى بلده رغبة فى التقرب إلى ذكراه الخالدة ، واسمه اللامع .

ولم تتكشف حتى اليوم تفاصيل حياة جمال الدين فى طفولته وصباه ويقال أنه بدأ مرحـــلة تعليمية حين بلغ الخامسة من عمره فى مدرسة محلية بقريته (أسعد آباد) حتى بلغ العاشرة . بينما تذكر بعض المصادر أنه أخرج من قريته مع أبيه وأعمامه إلى كابول وهو فى الثامنة من عمره .

ويبدو أنه تلقى مبادىء العلوم فى قريته حتى بلغ الثامنة من عمره ، ثم انتقل إلى كابول ، واستكمل فى مدارسها تلك العلوم التى بالغ بعض مترجميه فى تعدادها. فذكر جرجى زيدان أنه تلقى مبادىء العلوم العربية والتاريخ وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول وكلام وتصوف كما تلقى العلوم العقلية من منطق

(١) نشر باللغة الفارسية كتاب باسم (جمال الدين الأسد آبادى المعروف بالأفغانى كما يقدمه ابن أخته ميرزا لطف الله خان) وحاول تأكيد نسبة السيد الى فارس .

وحكمة عملية وسياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية وإلهية والعلوم الرياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك ونظريات الطب والتشريح، وأنه أتم دراسة كل هذه العلوم وهو فى الثامنة عشرة من عمره .

ولم يعلم على وجه التحقيق أسماء المدارس والأماكن التى تلقى فيها هذه العلوم ولكن الدكتور تشارلز آدمز ذكر أنه واصل الدرس والتحصيل فى أماكن متفرقة فى إيران وأفغانستان. ولم يذكر اسم معهد أو مدرسة تلقى فيها جمال الدين دراساته، والواضح أن هذه المدارس مهما تشابهت أسماؤها ليست لها قيمة حقيقية أكثر من أنها معاهد متشابهة فى نوع التعليم التقليدى الذى كانت تقدمه لتلاميذها.

وقال الذين أرخوا لحياة جمال الدين أنه كان يتقن اللغات العربية والأفغانية والفارسية والتركية ولكنهم لم يذكروا أين تعلم هذه اللغات وأتقنها .

ولذلك يبدو الضباب كثيفا عند البحث عن مرحلة التحصيل فى حياة الأفغانى. فهو منذ طفولته حتى الثامنة عشرة من عمره. يصعب الوصول إلى طرائق حياته وبيئته وتعليمه . ومما يذكر أن أباه كان رجلا متعلماً على طريقة عصره، وكان مطلعاً على مبادىء العلوم الدينية، وقد أرغم على الخروج من قريته ووضع مع أهله تحت عين الحكومة فى كابل . وما عرفنا لجمال الدين إخوة أو أخوات . فالحياة العائلية مجهولة، ووسائل المعيشة مجهولة وطرائق تعليمه مجهولة أيضا(١) .

ووسط هذا الضباب خرج جمال الدين إلى الدنيا وكأنه أمة وحده .

ولكن هذه النشأة التى نجهل تفاصيلها يجمعها شىء واحد يغنى عن التفصيل

---

(١) ذكر ميرزا لطف الله خان الذى يقول انه ابن أخت السيد جمال الدين الأفغانى معلومات عن مولد السيد ونشأته وتعليمه واسرته فى كتابه (جمال الدين الأسد آبادى) وقد أغفلت ذكر هذه المعلومات أصلا بسبب التشكك فى الكتاب ذاته من وجهة النظر العلمية ، لأن المؤلف ذكر وقائع غير حقيقية عن السيد جمال الدين من أهمها صلته بالشيخ محمد باقر البواناتى الذى ذكر المؤلف أنه كان كبير علماء بوشهر ، فقد كرم المؤلف هذا الرجل بينما ذكر الأفغانى نفسه أنه احتقره وأمر أتباعه بضربه حين تعرض لذكر الرسول عليه السلام الى غير ذلك من غمزات تجعل المعلومات غير موثوق بها .

فى مثل البيئة التى ولد فيها جمال الدين ، فهو من عشيرة كبيرة لها سلطان تعتز به . ويضطر أحد الملوك إلى ارغام بعض أفرادها ومنهم والد جمال الدين وأعمامه على الإقامة فى كابول تحت سمعه وبصره(١) ، مما يدل على سطوتهم وقوتهم فهم منتسبون إلى البيت النبوى الشريف . وهذا النسب وحده قوة مابعدها قوة أمام جماهير الشعب التى تعرف قدر الأشراف من الناس وتحلهم مكانهم اللائق مهما كانت الظروف والأحوال ، ومهما تقلبت بهؤلاء الأشراف متقلبات الزمان .

ولذلك لم يذكر جمال الدين اسمه مقرونا باسم أبيه وجده على طريقة غيره من الناس مكتفياً بالنسب الشريف الذى يمتد إلى البيت النبوى ، وما بالك برجل جده الأعلى الحسين بن على بن أبى طالب . . أتراه ينتسب لغيره حين تذكر الأنساب ؟

وهؤلاء الأشراف لهم ميراث من العلم أيضا ، فهم يسعون دائماً إلى العلم سعياً حثيثا ، ويرون من استكمال الشرف عندهم معرفة القرآن والسنة اقتداء بجدهم الأعلى . وقد كان هؤلاء الأشراف فى بلاد الإسلام يستنكفون الحرف، يرون أنه لايليق بشريف النسب أن يعمل فيما يعمل فيه الناس من هذه الحرف ، وقد يبلغ الواحد منهم مرحلة السغب والضنك فيأبى أن يعمل أجيراً عند آحاد الناس ، استقلالا بنفسه واعتباراً لشرفه .

فى هذا الجو الذى يحيط به شرف النسب ولد جمال الدين ونشأ وترعرع ، ولم تصل اهتماماته إلى تسجيل هذه المرحلة من حياته اكتفاء بما يذكر عن شرف المنبت وأصالة المحتد . فهو الغنى وغيره فقراء ، ولكنه ليس غنى المال بل غنى النفس . وهو لايهتم بكشف بيته الذى نشأ فيه لأنه لا قيمة لفراش ولد عليه ، أو طعام قدم له ، بل القيمة كلها فى أنه حفيد الحسين بن على وجدته فاطمة بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

وهكذا تكونت البذور الأولى لشخصية جمال الدين داخل هذه البيئة الأفغانية المسلمة ، فنشأ طفلا من أبناء عشيرة ذات سلطان وذات شرف ، وفتح عينيه

---

(١) كان الجد الأعلى للسيد جمال الدين واسمه السيد محمود صاحب الحكم فى ولاية (كونر) التى كانت ولاية مستقلة ، ومن قراها (أسعد أباد) ، والسيد محمود اسم معروف هنالك حتى اليوم ، ويضرب به المثل فى الحكم العادل .

منذ ولادته على رجال أشداء شرفاء لهم سلطان على عامة الناس بحكم إنتسابهم إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) . ونفوذهم على ولاية كانوا يحكمونها بسبب هذا النسب الرفيع .

وقد ورثت البيئة الأفغانية قدراً ضخما من تراث الإسلام ، وامتلأت مساجدها بالعلماء ،وكان من أبنائها واحد من مشاهير المحدثين الذين رووا قدرا كبيراً من أحاديث الرسول وهو السيد على الترمذى الشهير المتوفى عام ٢٧٩ هـ (٩٨٢م) وهذا المحدث من أجداد جمال الدين . واحتفظت بلاد الأفغان — ولا زالت تحتفظ حتى اليوم — بتراث الإسلام تهبه كل ما تملك من عناية ، وتنمية وتزكية .

ولا شك فى أن الطفل جمال الدين حفظ القران وحفظ كثيراً من أحاديث الرسول فى طفولته ، وتلقى علوم العربية عن الأشياخ فى قريته(أسعد آباد) وفى كابول العاصمة . ولعله قد ذهب إلى إيران كما ذكر مؤرخوه والتقى بعلمائها وأفاد من دروسهم ولكن المؤكد هو أن العلوم الدينية فى أفغانستان أكثر ازدهاراً منها فى إيران .

وليس غريبا على مثله أن يتلقى هذا القدر الكبير من العلم فى سنوات صباه . فإن الذين تحدثوا عن ذكائه النادر فى طفولته وصباه يؤكدون حقيقة ظهرت فيما بعد مذهلة خارقة ، وليس من العسير على أمثال جمال الدين أن يعرفوا هذه العلوم كلها فى سنوات قلائل . وليس غريبا أن يبدأ مرحلة تعليمه فى الخامسة ، فهى السن التى يبدأ فيها الأطفال حفظ القرآن وتجويده فى ديار الإسلام على ما كان معروفا فى الاجيال الماضية .

وبين الخامسة والثامنة عشرة استطاع جمال الدين تحصيل قدر كبير من العلوم ، وعرض له سفر إلى بلاد الهند حيث أقام عاما ونصف عام ينظر فى بعض العلوم الرياضية على الطريقة الأوربية الحديثة وألم بشىء من اللغة الإنجليزية .

ولم يذكر مؤرخوه كيف عاش فى الهند ، وكيف أفاد من العلوم التى نقلها الانجليز إلى تلك البلاد ولكن رحلة الهند كانت عميقة الأثر فى أفكار الشاب الثائر فقد شهد فيها الاستعمار على حقيقته وأدرك كيف يستعبد ملايين البشر فى شبه القارة الهندية استعبادا لم يحدث له مثيل حتى فى عهد الرومان .

وأفاد جمال الدين من رحلة الهند معرفة بالعلوم الحديثة أضافت إلى معلوماته الطرق الجديدة فى البحث ، وعرفته بالتطور العلمى الحديث فى العالم الغربى . وفى الوقت ذاته فتحت عينيه على حقيقة الاستعمار وآثاره السيئة التى ابتلى بها الشعب الهندى كما إبتليت بها شعوب شرقية أخرى .

وتكونت شخصية جمال الدين تكوينا صلبا فهو فى هذه السن من الشباب الغض ينصرف عن متع الحياة التى يميل إليها أمثاله من الشباب ، ويتجه فكره إلى عظائم الأمور وكأنما قد ندب نفسه لعمل جليل .

وإذا أردنا أن نعرف سببا لرحلته إلى الهند(١) وهى فى ذلك الوقت رحلة شاقة عسيرة تقتضى أن يعبر الطرق الجبلية على ظهور الإبل أو البغال ، ويمضى أياما حتى يصل إلى مدينة عامرة . فإننا ندرك أنه رحل إلى الهند وهو فى سن أقل من الثامنة عشرة لسبب تبينه ظواهر أحواله ونشأته وتطلعاته وهذا السبب فى ظاهره هو حب المعرفة ، وذكروا أنه تلقى العلوم الحديثة فى الهند . فهو مسافر من أجل المعرفة فى أى مكان راغب فى المزيد منها أينما حل وحيثما سار .

ولكن معظم مؤرخى جمال الدين لم يذكروا أنه عرف لغة من لغات الهند كما قال بعضهم أنه لم يكن يتقن الانجليزية التى أصبحت اللغة الغالبة فى تلك البلاد عند صفوة المثقفين فيها . بل كانت معرفته بالانجليزية قليلة المحصول . فكيف تيسرت له الإقامة عاما ونصف عام فى بلاد لا يعرف لغتها ، وبأى لغة تعلم العلوم الحديثة وهى فى جملتها علوم هندسية ورياضية يحتاج المتعلم لها إلى معرفة المصطلحات فوق معرفة اللغة .

هناك إحتمالان فهو إما تعلم الانجليزية حقا فقد ذكر بعض مؤرخيه — ومنهم الدكتور تشارلز آدمز — أنه عرف شيئا من الانجليزية وتابعه فى ذلك الأستاذ عباس العقاد وإما أنه كان يتحدث إلى من لقيهم فى الهند بلغته الأفغانية أو بالفارسية(٢) وهما لغتان متداولتان فى تلك البقاع بسبب إرتباطات التجارة

---

(١) كانت فى الهند مدارس كثيرة ، خاصة فى ولاية (حيدر اباد) ، وهناك التقت الثقافتان الاسلامية والغربية ، وقد رحل كثيرون من الافغانيين الى الهند طلبا للعلم .

(٢) كتب الأفغانى رسالته (الرد على الدهريين) بالفارسية ووجهها الى أهل الهند .

والحضارة بين الهند وبين أفغانستان وإيران وكلا الاحتمالين يوجب التريث . فقد أكد أحد تلاميذه سليم العنحوري أن الرجل تبحر فى لغة السنسكريت أم لغات الشرق ولكن الذى لاشك فيه هو أنه ألم الماما بالسنسكريتيةوهى لغة ميتة كاللاتينية . أما حديثة فكان بالفارسية . وقدوجد نص لمحاضرة القاها فى بومباى وكتبها بخطه بالفارسية التى كانت لغة متداولة فى الهند (١) .

ويحسن أن نقف هنا لحظة أمام شخصية هذا العبقرى الذى استطاع بقدرة فائقة تعلم لغات عديدة . فإن الناظر إلى تاريخه يدرك أنه عرف الانجليزية والفرنسية أيضا . فوق معرفته للعربية والتركية والأفغانية والفارسية . ولكن بعض الذين ترجموا حياته لم يدركوا أن معرفة اللغة شيء يختلف عن النطق بها فقد يتقن الإنسان لغة من اللغات كتابه ، ولا يتقنها كلاماً . ومن هؤلاء السيد محمد رشيد رضا الذى تحدث عن نطق الأفغانى بالعربية فقال أن جمال الدين بالرغم من طلاقته لم يستطع التخلص من آثار نسبه الفارسى (وهو ليس فارسيا كما ذكرنا بل هو أفغانى) فى كلامه العربى وهذا ليس غريباً عند من يتحدثون بلغات غير لغتهم ، ولذلك كانت لغته العربية تتسم بالأعجمية .

ومن المحقق أن الأفغانى كان ذا قدرة باهرة فى تعلم اللغات وأنه تعلم الفرنسية أيضا كما سبق أن ذكرت فقد ذكر تلميذه أديب إسحق أن من عجائب ذكائه أنه تعلم اللغة الفرنسية أو بعضها حتى صار يقدر على الترجمة منها ويحفظ من مفرداتها شيئاً كثيراً فى أقل من ثلاثة شهور بلا أستاذ إلا من علمه حروف هجائها فى يومين .

وهذه المشكلة الجانبية التى لفتت النظر لاتصرفنا عن الموضوع الأساسى فإن إقامة جمال الدين فى الهند كانت مرحلة من أخطر مراحل حياته . ومما لا شك فيه أنه كان موضع رقابة السلطات الانجليزية هناك تحسب عليه خطواته ، وتتسمع إلى كلماته ، ويؤكد ذلك ماحدث له فى رحلته الثانية إلى تلك البلاد حين خرج من أفغانستان عام ١٢٨٥هـ (١٨٦٨ م) فى ظروف سنذكرها فيما بعد عازماً على الحج عن طريق الهند . فلما وصل إلى حدودها تلقته حكومة الهند بحفاوة وإجلال

---

(١) نشر نص هذه المحاضرة فى مجلة (الفلاح) بكابول ، وقد قال فيها الأفغانى أن علماء الهند والافغان وايران يدرسون كتاب (الشمس البازغة) وهو كتاب فلكى شهير ، وهم يصرفون ليلهم تحت ضوء مصابيح الزيت قارئين ، ولو سألتهم لماذا تشتعل النار بداخله ، وينبعث الدخان خارجه لما عرفوا جوابا .

إلا أنها لم تسمح له بطول الإقامة فى بلادها ولا أذنت للعلماء فى مقابلته إلا تحت مراقبة رجالها . فلم يقم هناك إلا شهراً ثم سيرته من سواحل الهند فى أحد مراكبها إلى السويس حيث إتجه إلى القاهرة وأقام بها أربعين يوماً ، واتخذ له مسكنا بحى القلعة مشتغلا بتدريس الفلسفة .

لقد فتح السيد عينيه على بلاد الأفغان وفارس وهما على أعنف مايكون من التنازع والبغضاء وكانت حكومة الهند البريطانية تستغل الخلاف بين الأمتين فى المذهب[1] والخلاف على الحدود كما تستغل حاجتهما إلى المال والسلاح فتغرى إحداهما بالأخرى وتبذل لها من مالها وسلاحها ماتقوى به على جارتها ، وتشترط عليها ألا تعقد الصلح معها حتى تأذن لها وإلا قطعت عنها المدد والمعونة وكانت حكومة الهند لا تأذن لها بالصلح إلا أن تكون الدولة المغلوبة قد نزلت عن دعواها فى الحدود الهندية .

وربما سكن القتال بين الأفغان والفرس على مقربة من الهند لينشب بين الفرس والترك من ناحية العراق وبحر قزوين بإيعاز من الروس أو طلاب الرخص الاقتصادية ، وينتهى القتال من هنا وهناك بغنيمة للانجليز أو للروس وخسارة على الأفغان والفرس والترك .

ولذلك كانت رحلة الهند عظيمة الأهمية بالنسبة لتكوين أفكار الأفغانى السياسية . ولخص الأستاذ عباس محمود العقاد نظرة جمال الدين السياسية بعد شرح المشكلة التى كانت قائمة فى تلك المنطقة بين فارس وأفغانستان والهند فقال: إن جمال الدين وضع يده على الداء كله حينما أدرك أن العلاج السريع لهذه المحنة إنما يبدأ بالتوفيق بين الأمم الإسلامية وكف المطامع والدسائس فى بلادها وكان يشق عليه كثيراً أى يرى هذه الأمم كما قال : « متحدين على الخلاف مختلفين على الاتحاد مطاوعين للمستعمرين والمستغلين جادين فى خدمتهم كأنها فريضة من فرائض الدين . فعقد عزيمته على رسالة واحدة يتحراها مدى الحياة وهى حسم الخلاف بين الأمم الإسلامية وإيصاد الأبواب على المستعمرين والمستغلين حتى

---

(١) تعتنق بلاد الأفغان مذهب أهل السنة . وتعتنق فارس مذهب الشيعة .

تنقطع المطامع التى تسول لهم العدوان على الأمم الإسلامية وإيقاع الفتنة والشقاق بين حكوماتها وطوائفها » .

« وكون جمال الدين فكرته فى الجامعة الإسلامية على هذا الأساس فهى ليست جامعة إسلامية يراد بها توحيد الحكومات وضمها جميعاً إلى حكومة واحدة ولكنها جامعة تحتم الاتحاد ضد مطامع المستعمرين والمستغلين .والغرض الذى كان جمال الدين يصوب نحوه أعماله . والمحور الذى كانت تدور عليه آماله هو توحيد كلمة الإسلام » .

ندب الأفغانى نفسه لتحقيق هذا الهدف الكبير وكانت شخصيته وحده هى المحور الذى يحرك الفكرة ، ولذلك فإنه يعتبر فيلسوف الوحدة الإسلامية بمفهومها الذى إستقر عليه رأى الباحثين من أنها وحدة هدف لا وحدة دولة .

لقد اكتسب جمال الدين فلسفات الشرق من الهند وفارس وبلغ مرتبة التصوف الفلسفى الزاهد فى متع الحياة . وقد وصفه تلميذه أديب إسحق بأنه عزب عفيف النفس قانت كثير القيام لا ينام إلا الغلس إلى الضحى ، ولا يأكل غير مرة واحدة فى اليوم ، على أنه يكثر من شرب الشاى والتدخين . قوى العارضة ، ميال إلى المعارضة ، طويل الحجة ، واسع المحفوظ ، نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتك أسرار السرائر ، ولكنه على فضله لا يسلم من حدة المزاج .

وذكر تلميذه ومريده الأكبر الإمام محمد عبده أنه كان ذا ميل إلى مذهب السادة الصوفية رضى الله عنهم وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض .

وقد اتخذ الأفغانى من فلسفة الصوفية وسيلته فى الوصول إلى أهدافه فى تحقيق الوحدة الإسلامية . وامتزجت فى نفسه جواهر الإسلام مع الحكمة والفلسفة وآتاه الله قدرة خارقة على الإفادة من العلوم فقد كان حاد الذكاء قوى الحافظة حتى قيل أنه يستطيع أن يقرأ كتابا برمته فى أى موضوع ثم لا يشرد من ذهنه كلمة منه بعد ذلك . وليس ذلك غريبا عند أمثاله من العباقرة فقد كان أبو العلاء المعرى يسمع الكتاب من قارئه فيحفظه حرفا حرفا ، ويرجع إليه الناس فيسمعهم النص كاملا .

وبذلك إكتملت شخصية الفيلسوف وهو فى شرخ الشباب وبدأ رسالته الإسلامية قبل أن يبلغ العشرين من عمره ، ثم بدأت المرحلة الجديدة فى حياة بالرحلات والسياحات فى أقطار الأرض ، وصراع الطغاة والمستبدين أينما لقيهم فى طريقه .

هذه الشخصية الفذة تناولها أكثر من باحث بالبيان والافصاح فتحدث عنه تلميذه محمد عبده قائلا : « إن حميته الدينية لا يساويه فيها أحد فهو يكاد يلتهب غيره على الدين وأهله أما مقصده السياسى الذى قد وجه إليه أفكاره ، وأخذ على نفسه السعى إليه مدة حياته وكل ما أصابه من البلاء أصابه فى سبيله ، فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها ، وتنبيها للقيام على شؤونها حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحقيقى مجده ، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار المشرقية وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية ، وله فى عداوة الانجليز شئون يطول بيانها .

أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فقد كان لجمال الدين سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وابرازها فى صورها اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له . وله قوة فى حل مايعضل منها كأنه سلطان شديد البطش فنظرة منه تفكك عقدها . كل موضوع يلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه فيأتى على أطرافه ويحيط بجميع أكنافه ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه ، وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع ، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع ، وله لسن فى الجدل وحذق فى صناعة الحجة لا يلحقه فيهما أحد إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه . وكفاك شاهدا على ذلك أنه ما خاصم أحداً إلا خصمه ولا جادله عالم إلا ألزمه .

وقد اعترف له الأوروبيون بذلك بعد ما أقر له الشرقيون ، وبالجملة فإنى لو قلت أن ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ماقدر لغير الأنبياء لكنت غير مبالغ ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته ، وله حلم عظيم يسع ماشاء الله أن

يسمعه ، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه . فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب ، فبينما هو حليم أواب ، إذا هو أسد وثاب ، وهو كريم يبذل ما بيده ، قوى الاعتماد على الله لايبالى ما تأتى به صروف الدهر ، عظيم الامانة ، سهل لمن لاينه ، صعب على من خاشنه ، طموح إلى مقصده السياسى الذى قدمناه ، إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول اليه ، وكثيرا ما كان التعجل علة الحرمان ، وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد عن الغرور بزخارفها ، ولوع بعظائم الأمور عزوف عن صغارها ، شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ، إلا أنه حديد المزاج ، وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة .

فخور بنسبه إلى سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم لايعد لنفسه قربة أرفع ولا عزاً أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر ، وبالجملة ففضله كعلمه والكمال لله وحده .

أما خلقه فهو يمثل لناظره عربيا قحاً من أهالى الحرمين وكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين من سكنة الحجاز ، ربعة فى طوله وسط فى بنيته ، قمحى فى لونه عصبى دموى فى مزاجه ، عظيم الرأس فى اعتدال ، عريض الجبهة فى تناسب ، واسع العينين ، عظيم الأحداق ضخم الوجنات ، رحب الصدر ، جليل فى النظر هش بش عند اللقاء ، قد وفاه الله من كمال خلقه ، ماينطبق على كمال خلقه » .

أما أديب أسحق فقد وصفه بأنه أسمر اللون ، ربعة ممتلىء ، قوى البنية ، جذاب النظر ، نافذ اللحظ ، خفيف العارضين ، مسترسل الشعر ، بجبة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين ، وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الآستانة .

ووصفه سليم العنحورى فقال : إنه أسمر اللون إلى صفرة ، مفلفل الشعر أسوده نحيف البنية ، أهيف القامة ، جذاب الملامح خفيف العارضين ، حاد البصر يكاد يتطاير الشرر من حدقتيه ، يلبس السواد ويتزيا بزى العلماء ، طلق الكلام ذرب اللسان فصيح اللهجة ، بليغ العبارة ، مليح النكته ، سمح الكف ، طلق المحيا ، وقور السمت يجتنب النساء ويفطم نفسه عن الشهوات ، يكره الحلو ويحب المر ، وقلما خلت جيوبه من خشب الكينا والراوند يتنقل بهما تفكها ، يأكل الوجبة مرة كل يوم ، يكثر من شرب الشاى والتبغ » .

هذه هى جملة أوصاف السيد جمال الدين ، كما ذكرها تلاميذه ومريدوه. وهى لا تكاد تختلف إلا فى الأسلوب ، أما معانيها فإنها متطابقة من ناحية التصوير الحسى والمعنوى للشخصية .

إن نشأة جمال الدين ومواهبه وقدراته جعلت منه هذا الفيلسوف الثائر ، ومكنته من الوصول إلى أعظم ما يأمل فيه أمثاله من العظماء وهو التأثير فى تيار التاريخ ، حتى قيل إن تاريخ الشرق الإسلامى فى ثوراته على الحكم المطلق وعلى مطامع الاستعمار والاستغلال لن ينفصل عن تاريخ جمال الدين .

٣ — سياحات ورحلات

كانت رحلة الأفغانى الأولى إلى الهند من أعظم العوامل التى أثرت فى حياته كما ذكرنا ، فقد عاش فى تلك البلاد سنة وبضعة أشهر ، وبعد ذلك غادرها إلى الأقطار الحجازية لأداء فريضة الحج وطالت مدة سفره إليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر حتى وافى مكة المكرمة فى سنة ١٢٧٣ هـ (١٨٥٦م) ويحيط الغموض بهذه الرحلة أيضا فلا نعلم أى البلاد زار جمال الدين ولا أى الأقطار نزل بها .

كما أنه لا يتبين لنا كيف كان يعيش وما هو مورد رزقه خلال عام كامل ساح فيه حول بلاد المحيط الهندى أو عبر القارة الآسيوية من الهند إلى الحجاز .

ولذلك فإننا نعتقد أن الأفغانى المتصوف عاش عيشة الفقراء منذ البداية على طريقة أعلام أهل الطرق الذين يتفانون فى الذات الالهية وينطلقون غير هيابين إلى أى بقعة من بقاع الأرض . وبذلك خرج من الهند إلى الحجاز وطاف بلاداً كثيرة ووقف على كثير من عادات الأمم التى مر بها فى سياحته وعرف أخلاقهم وأفاد من ذلك فوائد جليلة .

وخلال هذه الرحلة لم يكن جمال الدين من الشخصيات الشهيرة حتى يقال إن شهرته تسبقه إلى البلد الذى ينزل فيه ، ولكنه على ما يبدو من ظواهر أحواله كان طالب معرفة وكان متصوفا فقيرا ، وبلاد الإسلام تتسع لفقراء المتصوفه

فى رحلاتهم فهناك المساجد الكثيرة فى كل مدينة يأوى إليها أهل الطريق فى سياحاتهم ويجدون فيها طعامهم وشرابهم بغير عناء أو مشقة .

وإذا كان مؤرخو جمال الدين لم يهتموا بهذه الأحوال ، وتناقلوا واحداً بعد واحد ما ذكره الأمام محمد عبده عن حياة أستاذه ، فإن الأمور التى تبدو صغيرة أمام جمال الدين ، هى فى الواقع التى كونت عظمته .

لقد كانت الحياة المادية من الهوان أمام هذا الشاب الفيلسوف مما جعله لا يفكر فيها كما يفكر عامة الناس ، فهو لا يبحث عن الكساء والطعام والمأوى ، وهو لا يتعب عقله بالبحث عن المرأة ، فقد فطم نفسه عن الشهوات كلها ، ومضى فى طريقه وحده يلاحظ حياة المسلمين فى هذه الرقعة الواسعة بين الهند والحجاز وفى هذه البقعة بلاد الأفغان وإيران والجزر الاسلامية التى تكونت منها أندونيسيا والشواطىء حول الجزيرة العربية ابتداء من الكويت وقطر وعمان وغيرها من أمارات الخليج حتى عدن وما يحيط بها من مشيخات .

هذه البقعة كلها التى طاف حولها جمال الدين كانت ذليلة خاضعة للاستعمار الأوربى يحيط بها من كل جانب ويسيطر عليها سيطرة كاملة .

ووصل جمال الدين إلى مكة ليرى شعوب الإسلام فى بيت الله الحرام . أعطاهم الله العزة ، ومنحهم الوحدة الإسلامية ينطقون بكلمة واحدة ، إلههم واحد ، وقرآنهم هدى ورحمة للعالمين . ولكن أين هذا المشهد الرائع من مشهد تلك البقاع الإسلامية التى أحاطت بها القواعد العسكرية الأجنبية ، وأقيمت فوقها قلاع المستعمرين يسومون المسلمين العذاب ، يبتزون خيراتهم ، ويسخرونهم لخدمة الطغاة المستبدين .

حول الكعبة طاف الشاب الفيلسوف الزاهد مع ألوف المسلمين يرددون كلمة واحدة :

— لبيك اللهم لبيك .

وكان الصوت رهيبا فى أذنيه ، يكاد قلبه ينخلع عند ترديده وعند سماعه .

فى هذا المكان وقف محمد بن عبدالله صلوات الله عليه وسلامه ، وهنا طاف حول الكعبة يردد هذه الكلمات .

ومن هذا المكان خرجت أضواء رسالة محمد إلى العالمين . فأسقطت عرش كسرى وعرش قيصر ، وامتدت عبر القارات لتخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وهؤلاء الألوف يؤمنون بلا اله إلا الله ثم تستذلهم هذه الدول الاستعمارية وتسيطر على بلادهم ، وتحاول أن تطفىء نور الإسلام فى بقاعه الممتدة عبر القارات والمحيطات .

كانت رحلة جمال الدين من الهند إلى الحجاز رحلة مباركة زادته إيمانا فوق إيمان وملأت قلبه وعقله بروح الإسلام وهو الذى حفظ فى وجدانه تراث الإسلام علما يملأ صدره ، وإيمانا يتلألأ فى وجدانه .

وعاد الفيلسوف الزاهد إلى بلاده .

عاد ملىء العقل بالحكمة ، مفعم القلب بالإيمان ، قوى الجسد للنضال .

عاد إلى كابول ليدخل فى سلك رجال الحكومة على عهد الأمير (دوست محمد خان) ، ولما زحف الأمير إلى هراة ليفتحها ويملكها على (سلطان أحمد شاه) صهره وابن عمه سار السيد جمال الدين معه فى جيشه ولازمه مدة الحصار إلى أن توفى الأمير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصار زمنا طويلا . وتقلد الامارة ولى عهدها شير على خان سنة ١٢٨٠ وأشار عليه وزيره (محمد رفيق خان) أن يقبض على أخوته خصوصا من هم أكبر سنا منه ويعتقلهم فإن لم يفعل سعوا بالناس إلى الفتنة وألبوهم للفساد طلبا للاستبداد بالأمارة .

وكان فى جيش هراة من أخوة الأمير محمد أعظم ومحمد أمين وكان هوى الشيخ جمال الدين مع (محمد أعظم) فلما أحسوا بتدبير الأمير ومشورة الوزير أسرعوا إلى الفرار وتفرقوا إلى الولايات كل منهم ذهب إلى ولايته التى كان يليها من قبل أبيه ليعتصم بمنعته فيها وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية وبعد مجالدات عنيفة عظم أمر (محمد أعظم) وابن أخيه عبد الرحمن (الأمير السابق) وتغلبا على عاصمة المملكة وأنقذا (محمد أفضل) والد (عبد الرحمن) من السجن ونصباه أميرا على أفغانستان ثم أدركه الموت بعد سنة وقام على الإمارة بعده شقيقه (محمد أعظم خان) وارتفعت منزلة الشيخ جمال الدين عنده

فأحله محل الوزير الأول وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرأيه فى العظائم ومادونها على خلاف ما تعوده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التعويل على رجال حكومتهم وكادت تخلص حكومة الأفغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الأمير بالأغلب من ذوى قرابته مما حمله على تفويض مهمات من الأعمال إلى أبنائه الأحداث وهم خلو من التجربة عراة من الحنكة فساق الطيش أحدهم وكان حاكما فى (قندهار) على منازلة عمه (شير على) فى هراة ولم يكن له من الملك سواها وظن الفتى أنه يظفر فينال عند أبيه حظوة فيرفعه على سائر أخوته فلما تلاقى مع جيش عمه دفعته الجرأة على الإنفراد عن جيشه فى مئتى جندى واخترق بها صفوف أعدائه فأوقع الرعب فى قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا ماالتفت (يعقوب خان) قائد (شير على) فوجد ذلك الغر المتهور منقطعا عن جيشه فكر عليه وأخذه أسيراً فتشتت جند (قندهار) وقوى الأمل عند (شير على) فحمل على قندهار واستولى عليها وعادت الحرب بين أمراء الأفغان , وكان (شير على) ملكا وطنياً، مشهوراً برغبته فى الاصلاح معروفا بعدائه للانجليز ، وبعد حروب هائلة تغلب (شير على) وانهزم (محمد أعظم) وابن أخيه عبد الرحمن فذهب عبد الرحمن إلى بخارى وذهب محمد أعظم إلى بلاد إيران ومات بعد أشهر فى مدينة نيسابور وبقى السيد جمال الدين فى كابل لم يمسسه الأمير بسوء إحتراماً لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوى إلا أنه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والإنتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله ولهذا رأى السيد جمال الدين خيراً له أن يفارق بلاد الافغان فاستأذن للحج ، فأذن له على شرط أن لا يمر ببلاد إيران كيلا يلتقى فيها بمحمد أعظم وكان لم يمت فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر فلما وصل إلى التخوم الهندية تلقته حكومة الهند بحفاوة وإجلال إلا أنها لم تسمح له بطول الإقامة فى بلادها ، ولم تأذن للعلماء فى مقابلته إلاعلى عين من رجالها فلم يقم أكثر من شهر ثم سيرته من سواحل الهند فى أحد مراكبها على نفقتها إلى السويس فجاء إلى مصر وأقام بها نحو أربعين يوما تردد فيها على الجامع الأزهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا إليه كل الميل وسألوه أن يقرأ لهم شرح كتاب الاظهار فقرأ لهم بعضا منه فى بيته ثم تحول عن الحجاز عزمه وتعجل بالسفر إلى الآستانة .

٣ — الرحيل إلى الاستانة

ذكر الثقات من مؤرخى الأفغان وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده أن السيد بعد أن أقام فى مصر أربعين يوما ، سافر إلى الاستانة وكان السلطان فى ذلك الوقت (عبد العزيز خان) الذى تولى الخلافة فى ١٧ ذى الحجة سنة ١٢٧٧ هـ وخلع منها فى ١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٩٣ هـ .

وبعد أيام من وصوله أمكنه ملاقاة الصدر الأعظم عالى باشا ، ونزل منه منزلة الكرامة ، وعرف له الصدر الأعظم فضله ، وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله ، وهو مع ذلك بزيه الأفغانى قباء وكساء وعمامة عجراء وحومت عليه لفضله قلوب الأمراء والوزراء وعلا ذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وأدبه وهو غريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم .

وبعد ستة أشهر عين عضوا فى مجلس المعارف،واقترح فى المجلس إقتراحات لتعميم المعارف تمس بعض أرزاق شيخ الإسلام حسن فهمى أفندى ، مما أحفظ قلبه عليه .

وفى شهر رمضان عام ١٢٨٧ هـ طلب مدير دار الفنون تحسين أفندى إلى السيد أن يلقى خطابا للحث على الصناعات ، فاعتذر جمال الدين بسبب ضعفه فى اللغة التركية،وألح عليه تحسين أفندى فأنشأ خطابا طويلا كتبه قبل القائهوعرضه على وزير المعارف صفوت باشا وعلى(شروانى زاده) مدير الأمن العام (مشير الضابطيه) وعلى منيف باشا عضو مجلس المعارف واستحسنه كل منهم ، وأطنب فى مدحه .

وعين موعد القاء المحاضرة ، وسارع الناس إلى دار الفنون واحتفلت بها الحكومة فحضر معظم الوزراء ، كما حضر أعيان أهل العلم والصحفيين . وصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى محاضرته ، وكان شيخ الإسلام التركى (حسن فهمى أفندى) حاضراً ، فبدأ يبحث فى تضاعيف كلام السيد عن كلمة يستخدمها ضده حتى يصل إلى تكفيره ، أو إثارة العامة عليه على الأقل .

وكان ملخص محاضرة السيد جمال الدين هو أن المعيشة الإنسانية تشبه البدن

الحى ، وأن كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدى من المنفعة فى المعيشة ما يؤديه العضو فى البدن،فشبهالملك مثلا بالمخ الذى هو مركز التدبيروالإرادة . وشبه الحدادة بالعضد ، والزراعة بالكبد ، والملاحة بالرجلين . ومضى فىسائر الصناعات والأعضاء حتى وصفها كلها ببيان واف . وقال إن هذا هو ما يتألف منه جسم السعادة الإنسانية ، ولا حياة لجسم إلا بروح ، وروح هذا الجسم إما النبوة واما الحكمة.ولكن يفرق بينهما أن النبوة منحة الهية لاتنالها يدالكاسب يختص الله بها من يشاء من عباده . أما الحكمة فمما يكتسب بالفكر والنظر فى المعلومات .

كما قال الأفغانى ان النبى معصوم من الخطأ وإن الحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه . وإن أحكام النبوات آتية على مافى علم الله لايأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فالأخذ بها من فروض الإيمان ، أما آراء الحكماء فليس على الناس فروض اتباعها إلا من باب ما هو الأولى والأفضل على شريطة ألا تخالف الشرع الالهى .

وفى أعقاب هذه المحاضرة أشاع شيخ الإسلام التركى أن الشيخ جمال الدين زعم أن النبوة صناعة،وثبت هذه الإشاعة فى عقول العامةلأن محاضرة جمالالدين كانت تدور حول موضوع الصناعة . ثم أوعز إلى خطباء المساجد بأن يذكروا ذلك محفوفا بالتفنيد والتنديد . وثارت ثائرة الأفغانى واهتم بالدفاع عن رأيه وتفنيد رأى خصمه ، وإثبات براءته مما رمى به وطلب محاكمة شيخ الإسلام ، واشتد فى طلب المحاكمة . ونشرت جرائد الآستانه مقالات عن الموضوع بعضها يؤيد جمال الدين وبعضها يؤيد شيخ الإسلام .

وأشار بعض أصدقاء جمال الدين عليه بالتزام السكون ، ونصحوه بالإغضاء عن طلب محاكمة شيخ الإسلام ، ولكنه رفضذلك وأبى إلا أن يطلع الناس على حقيقة المؤامرة .

واشتد الخصام فى الآستانه بين أنصار جمال الدين وبين أعدائه ، وأوشكت أن تقع فتنة بين الناس بسبب هذه المحاضرة .

وأخيراً أصدرت الحكومة أمراً إلى السيد جمال الدين بمغادرة الآستانة

بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ، ثم يعود بعد ذلك فى أى وقت يشاء .

وكانت أشد الجرائد هجوما على جمال الدين جريدة (الوقت) التى اتخذت من موضوع محاضرته مجالا صحفيا بلبلت فيه الأفكار وقالت إنه جعل النبوة فى عداد الصناعات المعنوية .

ومنذ ذلك الحين بدأت حملة الافتراءات على الشيخ جمال الدين محاولة التشكيك فى دينه . حتى أنه رمى بالالحاد فيما بعد فقد ذكر سليم العنحورى فى ترجمة حياته أنه أخذ عن علماء البراهمة والإسلام أعظم العلوم الشرقية والتاريخ ، وتبحر فى لغة السانسكريت أم لغات الشرق ، وبرز فى علم الأديان حتى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدم العالم على طريقة الفلاسفة الملحدين .

ورجع سليم العنحورى عن رأيه هذا بعد مقابلته للشيخ محمد عبده فى بيروت فكتب مقالا فى جريدة (لسان الحال والجنة) فى بيروت اعترف فيه بخطئه الذى أوقعه فى اتهام الحكيم الأفغانى بالإلحاد . وقال إنه سمع ذلك من بعض المصريين والسوريين الذين عرفوا جمال الدين ، وتحدثوا عن سوء عقيدته ووهن دينه .

وقد كان هؤلاء يرددون عنه ما يحكيه أثناء مناظراته الجدلية عن عقائد المعطلين، وكان المراد منها إظهار حقائق النحل والبدع لا الاعتقاد بها ، بل لإقامة الحجة على بطلانها ، مما وضحه السيد فى رسالته الشهيرة فى الرد على الدهريين .

لقد كانت قوة جمال الدين من الدوافع التى جلبت إليه المتاعب عند أعدائه ومنكرى فضله . وهكذا فعل شيخ الإسلام التركى فى الآستانه ، حين ألب عليه وعاظه من أئمة المساجد ، وجعلهم وسيلة لإثارة العامة على هذا الحكيم ظلما وبهتانا . ولم تستطع دولة الخلافة الإسلامية أن تحكم فى موضوع الاتهام ، بل اتخذت هذه الوسيلة الحكومية المعروفة فأبعدته من الآستانه .

واتجه السيد إلى مصر بناء على مشورة بعض مريديه ، فانفتح أمام الشرق باب الحكمة ، وأراد الله لرسالة الأفغانى الذيوع والانتشار من القاهرة .

٤ — إقامته فى القاهرة

جاء الأفغانى إلى مصر سنة ١٢٨٨ ﻫ (٢٣ مارس ١٨٧١م)

ويقول الشيخ محمد عبده إن السيد جمال الدين مال إلى مصر رغبة فى التفرج على مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الإقامة بها . بل كان يميل — كما يقول بعض مؤرخيه — إلى التوجه نحو مكة المكرمة . وقد خلط بعضهم ومنهم أديب إسحق فزعم أنه توجه من الآستانة إلى الحجاز ، ولكن المؤكد هو أنه اتجه مباشرة إلى القاهرة .

وفى القاهرة التقى برياض باشا رئيس الوزراء فى عهد اسماعيل وكانت لهذا الرجل رغبة فى الإصلاح على طريقته . فألغى الضرب بالسياط ورفع هذا الظلم عن كاهل الشعب ، ويقال إنه ألغى السخرة . ورياض على كل ما عرف عنه من مظالم وصفه الشيخ محمد عبده بأنه كان صادق النية فى خدمة بلاده ، كما قال إنه كان يحب المصريين وليس فى طبقته من يحبهم مثله .

كما قال إن رياضا كان ذكيا بالفطرة وقد اكتسب التجربة من الأعمال الإدارية، مالم يكتسبه سواه ، ولكن معارفه جزئيات متفرقة يعوزها كلى يرجع إليه .

عرف رياض الحكيم الأفغانى قبل أن يأتى مصر ،ويقال إنه قابله فى الآستانة وأعجب به ، ودعاه إلى القاهرة . وحينما صدر إلى جمال الدين أمر الحكومة العثمانية بمغادرة أراضيها سافر إلى مصر ولاقى رياضا رئيس الوزارة . وأجرى عليه عشرة جنيهات كل شهر إكراما له لا فى مقابل عمل يقوم به . ولم يكن هذا الراتب مقابل تدريسه فى الأزهر كما قال بعض كتاب ترجمة حياته . فقد أكد الشيخ محمد عبده أن أستاذه لم يذهب إلى الأزهر مدرسا ولا يوما واحدا، وأنه كان يذهب إلى الجامع الأزهر زائراً . وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة .

واتخذ السيد بيتاً له فى خان الخليلى بالقرب من حارة اليهود مما جعل بعضهم يزعم أنه كان يقيم فى حارة اليهود . والواقع أنه لم يكن فى إمكانه الإقامة بحارة اليهود لسببين، أولهما : أنها مخصصة لطائفة دينية لا تسمح لغيرها بالإقامة بينها ،

وثانيهما : أنه لم يكن من المعقول أن يقيم مثله وهو رجل معمم صاحب وقار فى ذلك المكان . فضلا عن قذارة هذا الحى ، وعدم إمكان تجمع طلاب المعرفة حول أستاذهم داخل حاراته ومعظمهم من طلاب الأزهر أصحاب العمائم .

ولم يهتم مؤرخو جمال الدين بتحديد مكان بيته هذا الذى أقام فيه بحى خان الخليلى . ولكنه على كل حال كان بيتاً متواضعا كما تدل شواهد الأحوال حيث لم تسكن فى ذلك الحى دور ذات بال فى ذلك العصر وحتى اليوم ، كما أنه لم يكن فى استطاعة الأفغانى استئجار دار فى أحد أحياء القاهرة الراقية بسبب ضآلة موارده .

وأصبح بيت جمال الدين منتدى العلماء والأدباء . ومحط رحال الطلبة الأذكياء ، وكان من عادة الشيخ أن يقضى بياض نهاره فى داره حتى إذا جن الليل خرج متوكئاً على عصاه إلى (قهوة البوسطة) بميدان العتبة الخضراء على مقربة من حديقة الأزبكية . وكان مجلسه فى ذلك المقهى على هيئة نصف دائرة تضم اللغوى والشاعر والطبيب والمؤرخ والمهندس وغيرهم من صفوة المثقفين فى مصر .

وكان أصحاب ندوته يلقون عليه أدق المسائل ، فيحل عقدها ، ويفتح مغالقها ورموزها بلسان عربى مبين لا يتلعثم ولا يتردد بل يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال فيدهش السامعين ويفحم السائلين ويظل هكذا حتى ينتصف الليل فيعود إلى داره . وكان من عادته أن يدفع ثمن كل المشروبات التى يطلبها أصحاب ندوته لا يدفع أحد منهم شيئاً .

ويقول أديب أسحق : إنه صارت للأفغانى حلقة تدريس فى منزله يحضرها كثير من الطلبة بل المدرسين ثم صارت حلقته للنبهاء من رجال الحكومة والوجهاء ، فكان يكاشف بعضهم بآرائه الحرة ويسلك بسائرهم طريق النجاة من الخرافة والجهل .

ويقول أحمد أمين إن السيد جمال الدين كان شعلة ذكاء ، وقوة هائلة ، متحركة محركة ، لا يمسها ماس إلا شحن من كهربائه على قدر استعداده ، دائم التفكير ، دائم القول لمن يفهم ومن لا يفهم ، دائم النقد ، دافعاً للحركة والثورة والهيجان

فى المطالبة بالحقوق . حيثما حل رأيت ناراً تشتعل وأفكاراً تهيج ، ومطالب تطلب ، وحكومة تضطرب . فقد حدد غرضه فى الحياة ، ووهب نفسه للوصول إليه ، وهو إنهاض الدول الإسلامية من ضعفها وتبصرة شعوبها بحقوقها ، ورفع نير الأجنبى ، وتحديد مركز الحاكم والمحكوم فيها .

وأهم تلاميذ الأفغانى ومريديه الذين ذكرهم أحمد أمين هم : محمد عبده وسعد زغلول وإبراهيم اللقانى وإبراهيم الهلباوى ومحمود سامى البارودى وإبراهيم المويلحى وأديب إسحق وغيرهم . ولم يحص الأستاذ أحمد أمين هؤلاء التلاميذ والمريدين إكتفاء بمن ذكرهم من مشاهيرهم . كما قال أنه كان له درس علم فى بيته ودروس سياسية واجتماع فى مقهاه الذى يجلس فيــــه وحيث يكون زائراً أو مزوراً .

وتدل عبارة أحمد أمين على أن جمال الدين كان يدرس العلم فى بيته ويتكلم عن السياسة فى مقهاه. ويبدو أن هذا الاستنتاج راجع إلى طبيعة الدرس ذاته ، فالعلم يحتاج إلى مراجع أو كتب يتحدث عنها الشيخ ولذلك آثر أن يتكلم عن العلم فى البيت لسهولة الوصول إلى المراجع، ولكن السياسة لاتحتاج إلى هذا الجهد .

وحدد أحمد أمين نوع الكتب التى كان يقرؤها السيد جمال الدين على تلاميذه عندما تحدث عن الكتب التى قرأها عليه محمد عبده ، فقال : إنها لم تكن الكتب ذات القيمة فى نفسها ، فهى من جنس الكتب التى كان يقرؤها على الشيخ حسن الطويل ، ولكن العبرة ليست بالكتاب وإنما هى بشارح الكتاب والعالم الماهر يستطيع أن يصب كل تعاليمه أثناء كلامه على نحلة أو نملة ، وأى جملة فى نظره يستطيع أن ينفذ منها إلى العالم الفسيح .

وخلال عام ١٨٧٨ أنشأ محفلا ماسونياً فى مصر ، وسماه جمعية الماسون العربية ، ضم حوالى ٣٠٠ عضو من صفوة رجال مصر . واستحدث لهذا المحفل نظاماً لا نظير له فى المحافل الماسونية الأخرى ، ذلك أنه جعل منه شعباً متعددة قسمها على وزارات الحكومة فجعل لكل وزارة شعبة خاصة تسعى فى قضاء أمور الناس بها ، وتعمل على إنصاف المظلوم فيما يختص بأعمال هذه الوزارات .

ويقال إن توفيق باشا ولى العهد كان من أعضاء هذا المحفل الماسونى ، وإنه

تعاهد مع السيد جمال الدين على إنقاذ البلاد من مظالم أبيه حينما يتولى الملك ، كما يقال : إن توفيقاً عقد فى نفس الوقت معاهدة سرية مع انجلترا للعمل على عزل أبيه ليتولى عرش مصر .

كما أن الأفغانى كان أول من طالب الحكومة بمساواة الضباط المصريين بالضباط الشراكسة فى جميع الحقوق من حيث المرتب والترقية والعمل والإختصاص، وكان بينهم تفاوت كبير فى كل هذا ، مما كان من مسببات الثورة العرابية .

وأثناء إقامة السيد فى مصر صار له أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية مثل محمود سامى البارودى ، وعبد السلام المويلحى وإبراهيم المويلحى . وكثر عدد الذين يخدمون أفكاره ويعلون بين الناس مناره ، من أرباب الأقلام وعرف مريدوه أنه من خلقه الأخذ بناصر كل منتم للعلم، وشد أزر كل ذى ميل للأدب ، ومع أنه كان كثير الأنفة شديد الوطأة على الحكام يعاملهم بالعجب والخيلاء ، ويرنو إليهم بعين المقت والازدراء ، تراه بالعكس كثير التعظيم والتكريم لأولياء العلم وأنصاره مهما كانوا خاملين قاصرين ، يبذل لهم الأنس والدعة ويخفض لهم جانب الرقة والدماثة ويواسى محتاجهم بكل مايقدر عليه ، وتصل إليه يده .

ومما يروى عنه أيضا أنه بعد ذيوع شهرته أخذ يقرب منه عامة الناس، يقول لهم أثناء حديثه معهم « هبوا من غفلتكم ، أصحوا من سكرتكم ، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخمول، عيشوا كباقى الأمم أحراراً سعداء ، أو موتوا مأجورين شهداء » .

وكان للأفغانى أعظم الأثر فى الحركة الثورية المصرية ، إن لم يكن الدافع الأول للحركة المصرية الوطنية التى ساء ختامها بفشل الثورة العرابية ، ولم يكن أثره أقل من هذا فى النهضة العقلية والدينية التى تمثلت فى محمد عبده ورفاقه من المناضلين .

وسقط إسماعيل ، وتولى توفيق الحكم ، وكانت عناصر التحرير التى نشر لواءها جمال الدين ، وقوى سلطانها فى البلاد تتوسم إنفاذ إصلاحات عظيمة على

يدى توفيق ، ويبدو أنه قبل ارتقائه العرش كان قد عاهد جمال الدين وخاصته ، على أنه إذا آل إليه الأمر أيدهم فى جهودهم الإصلاحية ، ولكنه لم يكد يرتقى العرش حتى أصدر أمره فى سبتمبر سنة ١٨٧٩ باخراج جمال الدين من مصر هو وتابعه الفارسى المخلص (أبو تراب) ، ففارق مصر إلى الهند وأقام فى حيدر آباد الدكن .

وقد ذكر أديب إسحق أن أحوال مصر بلغت نهاية الارتباك والاختلال فظهر للسيد جمال الدين أن الخديو إسماعيل مخلوع لامحالة ، فكشف الغطاء عن مقاصده السياسية،وأخذ يسعى فى إنفاذ أغراضه فلقى المسيو تريكو قنصل فرنسا كما لقى مكاتب جريدة التيمس اللندنية فى مصر ، وكلهما بلسان حزب كبير ، فمال أمره بعض أمراء المصريين ، ونفذت سعاية أعدائه ، فأمر الخديوى توفيق بنفيه أواسط رمضان سنة ١٢٩٦ (سبتمبر سنة ١٨٧٩) فأخذ غلساً ، وقبض على كل من كان فى حلقته وأرسل هو وخادمه الأمين (أبو تراب) مخفورين إلى السويس ومنها إلى بوشير (ميناء فى إيران) ثم سافر إلى حيدر آباد . كما ذكر أديب اسحاق أن كتبه وأوراقه بقيت فى مصر ، وقيل: إن (روجرس بك) أخذها ثم أعيدت إلى صاحبها .

كما ذكر سليم العنحورى أن توفيق علم أن الأفغانى ممن ينزعون إلى إبدال الحكومة المقيدة بجمهورية شورية تحدثه نفسه بتولى زعامتها ، فأمر بالقبض عليه وإبعاده من مصر ، فقبض عليه عند بزوغ الفجر وهو عائد من مقامه الليلى المعلوم (قهوة البوستة) وسيق إلى مركز الشرطة ، وذهبوا به إلى محطة السكة الحديدية حيث أرسل إلى السويس . وهنالك عرض عليه قنصل فارس مائة دينار لنفقته فأبى مع كونه لم يملك فى تلك اللحظة درهماً واحداً . وأما مكتبته فحجزت عليها الحكومة وضبطتها .

وقبض على خادمه (أبو تراب) الذى وصفه العنحورى بأنه أصبح بملازمة السيد فيلسوفاً صغيراً مع كونه أمياً كبيراً [١] ، فسجن زمناً ثم أطلق سراحه ، وسافر

(١) أكد الشيخ محمد عبده إن عارف أفندى (أبو تراب) ليس أمياً ، وهو الذى قرأ له رسالة الشيخ جمال الدين فى (الرد على الدهريين) بالفارسية ونقل له معانيها فنقلها الشيخ محمد عبده بدوره الى العربية .

إلى بيروت ، ويروى المنحورى أنه عرف قصة رحيل (أبو تراب) إلى بيروت واختفائه منها بعد ذلك . ولكن الشيخ محمد عبده يذكر أن (أبو تراب) رحل مع السيد من مصر .

وقد علل مترجمو حياة جمال الدين قصة إخراجه من مصر تعليلات مختلفة ، فقال محمد رشيد رضا إنه بمجرد ارتقاء توفيق إلى الأريكة التى خلت من أبيه أخذ جمال وأصدقاؤه يلحون فى إنجاز الوعود السابقة وعلى الأخص إقامة الحكم النيابى الذى كان حجر الزاوية لجميع الاصلاحات التى أملوا فى تحقيقها . على أن بذل الوعود قبل تقلد الحكم سهل يسير ، وإنجازها بعد ذلك أصعب ، ويظهر أن توفيق وجد أن التخلص من جمال الدين المصلح المشاغب أوفق من إنجاز الوعود .

أما براون فيرى فى كتابه الثورة الفارسية أن الحكومة البريطانية رابها نشاط جمال الدين السياسى فحملت الخديوى الشاب على تخليص البلاد من ذلك المهيج الخطير .

ويؤيد الشيخ محمد عبده رواية براون فيقول : (إن بعض المفسدين ومنهم مستر فيفيان قنصل إنجلترا فى مصر سعى فيه لدى الجناب الخديوى ونقل المفسد عنه ، ماالله يعلم أنه برىء منه ، حتى غير قلب الخديوى عليه فأصدر أمره بإخراجه من القطر المصرى هو وتابعه أبو تراب ، ففارق مصر إلى البلاد الهندية) .

ومن الواضح أن رواية الشيخ محمد عبده هى أصدق الروايات ، فإن الأحوال السائدة فى عصر إسماعيل ، وعصر توفيق ، وسيطرة الأجانب على الحكم تؤكد تدخل بريطانيا لإبعاد جمال الدين من مصر ، خاصة وأن الحكيم الأفغانى كان يجاهر بعدائه لبريطانيا أينما ذهب ، ويدعو إلى مقاومة استعمارها فى الهند ، وتدخلها فى فارس وبلاد الأفغان .

وفى ذلك الوقت بلغ التدخل البريطانى فى مصر حداً كبيراً ، وبدأ منذ تولى (ريفرز ويلسون) شئون المالية فى عهد إسماعيل ، ثم استمر هذا التدخل فى صورة أعنف ، مما كان له أثر كبير فى عزل إسماعيل ، وتولية توفيق حتى قيل إنه

وقع اتفاقاً سرياً بين توفيق وبين الحكومة البريطانية على عزل أبيه من الحكم .

وقد كان توفيق ضالعاً مع الانجليز ، وثبت ذلك بعد سنوات حين ارتمى تحت أقدامهم ، مما أدى إلى احتلال مصر عام ١٨٨٢ .

٥ — رحلته الثانية إلى الهند

غادر الأفغانى مصر عام ١٢٩٦ ﻫ (١٨٧٨ م) وذهب إلى الهند ، وأقام فى مقاطعة (حيدر آباد الدكن) ، وهنـــاك كتب رسالته الشهيرة فى (الرد على الدهريين) .

وعندما قامت الثورة العرابية في مصر ، وهى التى نماها جمال الدين بأفكاره دعته حكومة الهند الانجليزية من حيدر آباد، وألزمته بالإقامة فى كلكتا ، وأقامت عليه الرقباء ، حتى انقضى أمر الثورة العرابية ، واحتلت بريطانيا مصر ، فأبيح له الذهاب إلى أى بلد ، فاختار الذهاب إلى أوربا ، وكانت أول مدينة وصل إليها هى لندن ، ثم غادرها إلى باريس كما يقول الشيخ محمد عبده .

ولكن بعض مؤرخى الأفغانى يذكرون أنه سافر فى ذلك الوقت إلى أمريكا ليتجنس بالجنسية الأمريكية ولكنه لم يقم بها، وقد تأكد لى بعد مراجعات طويلة أن السيد الأفغانى لم يسافر إلى أمريكا .

وقد ذكر بلنت صاحب كتاب (تاريخ مصر السرى) وهو صديق شخصى لجمال الدين أنه حاول أن يقف على أحوال جمال الدين فى أمريكا التى يقال : إنه سافر إليها بعد تجواله عامين فى الهند ، فلم يصل إلى شىء أيضاً .

ويبدو أن المدة التى قضاها فى الهند بين عامى ١٨٧٨م و ١٨٨٢ — وهى أكثر من عامين كما ذكر بلنت فى كتابه (تاريخ مصر السرى) — كانت عنيفة قاسية فى حياته ، فقد وضع تحت رقابة السلطات ، ولم تكن له حرية الحركة أو التحدث مع الناس . ولذلك إنصرف إلى التأليف ، فكتب رسالة فى (الرد على الدهريين) كما ذكر س. ج. ولسون فى كتابه (الحركات الحديثة فى الإسلام) أنه ألف كتاباً عن الخلافة كان نصيبه المصادرة .

ويبدو أن جمال الدين ألف رسائل أخرى أثناء إقامته فى الهند ، وقيل : إن رسائله التى لم تنشر والتى اطلع عليها بعض خواصه كانت لها دلالات ثورية حالت بينه وبين السفر إلى أمريكا .

ومن المؤكد أنه سافر إلى لندن وبقى بها أياماً قليلة ، ثم رحل إلى باريس حيث طالت إقامته لأكثر من ثلاث سنوات ، لحقه فى أثنائها تلميذه الشيخ محمد عبده وكان منفياً إلى بيروت بعد سقوط الثورة العرابية وأصدرا معاً جريدة العروة الوثقى ، التى صدر منها ثمانية عشر عدداً . واحتجبت هذه الجريدة بعد أن حاربتها الحكومة البريطانية فى كل مكان . وظل السيد جمال الدين مقيما فى أوربا أشهراً فى باريس وأشهراً فى لندن إلى أوائل شهر جمادى الأولى سنة ١٣٠٣ هـ .

وأثناء إقامته فى باريس نشر مقالات فى جرائدها تبحث فى سياسة روسيا وانجلترا والدولة العثمانية ومصر وترجمت جرائد انجلترا كثيراً منها ، وجرت له أبحاث فلسفية مع الفيلسوف الفرنسى الشهير رينان فى (العلم والاسلام) وكانت مساجلاته مع رينان فى جريدة (الديبا) من أعظم المساجلات الفلسفية التى شهدتها عاصمة فرنسا ، فأثبت لهذا الفيلسوف الفرنسى أن الاسلام دين ينصر العلم ويمقت الجمود ، لا كما يفهمه كثير من علماء أوربا — وكان منهم رينان — من أنه عدو العلم وحليف الجمود .

وشهد رينان للأفغانى بسعة العلم وقوة الحجة ، وذهب جمال الدين إلى لندن عام ١٨٨٥ ولم تطل إقامته بها ، وكان معه تلميذه محمد عبده ، ويقال إنهما ذهبا إلى لندن بإيعاز اللورد تشرشل واللورد سالسبرى لتبادل الرأى فى إمكان الاتفاق مع المهدى حيث كانت الثورة المهدية مشتعلة فى السودان ، وكان قد خطر لجمال الدين يوماً أن يرسل تلميذه ومريده الشيخ محمد عبده لتنظيم الثورة المهدية ، كما قيل : إنه اتفق فى لندن على أن تصحب جمال الدين بعثة بريطانية خاصة إلى الآستانة ليبذل نفوذه فى بلاط السلطان العثمانى للوصول إلى اتفاق يتضمن جلاء الانجليز عن مصر وتحالفهم مع تركيا وإيران وأفغانستان ضد روسيا ، ولكن عدل فى اللحظة الأخيرة عن سفر جمال الدين بعد أن حجزت تذاكر سفره فاشتد به الغيظ وسافر إلى موسكو ليتحدث مع القيصر عن سياسات الشرق والغرب ويستثيره ضد الانجليز .

وقد زار جمال الدين موسكو وسان بطرسبرج (لينجراد حالياً) واستقبل فى البلدين بالحفاوة والترحاب ، وطال بقاؤه فى روسيا نحو أربع سنوات يبث فيها آراءه الثورية . وكان القيصر يصغى إليه ويعظم قوله ، إلى أن سأله مرة عن سبب خلافه مع شاه فارس فأجابه السيد :

— سبب الخلاف الحكومة الشورية ، وضرورة اتباعها وأن الشاه ينفر من ذلك ، ولا يحب أن يعترف بها .

فقال القيصر :

— إنى أرى الحق فى جانب الشاه، إذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ؟.

فأجاب جمال الدين فى جرأة وفصاحة :

— أعتقد يا جلالة القيصر ، أن عرش الملك — إذا كان الملايين من الرعية أصدقاء له — خير من أن يكونوا أعداء له يترقبون الفرص ويكتمون فى الصدور سموم الحقد ونيران الانتقام ! .

فغضب القيصر من هذا الرد ، ولم يطل الحديث مع السيد ، وودعه وداعاً فاتراً، ثم أوعز إلى أكبر رجال بلاطه بالإسراع إلى إخراجه من روسيا بلطف.

ويبدو من دراسة رحلات الأفغانى أنه سافر إلى روسيا مرتين وأن الحديث الذى جرى بينه وبين القيصر كان بعد عودته إلى موسكو من إيران .

فقد ذكر الدكتور تشارلز آدمز أن الشاه أبرق إلى جمال الدين عام ١٨٨٦ ليتوجه إلى إيران ، فلبى الدعوة ، وأكرم الشاه وفادته وعينه وزيراً للحرب ، وكثر أنصاره ومريدوه لغزارة علمه ، وسحر بيانه ، وفصاحة لسانه ، وغيرته القومية على مصلحة البلاد،واشتد نفوذه وقوى سلطانه ، لا على المستنيرين وأصحاب المناصب فحسب ، ولكن على عامة الناس أيضاً ، فخامر الشاه ريب من أمره مخافة أن يكون وراء ذلك ما يخشى منه على سلطانه ، وتنكر له الشاه وأحس جمال الدين بهذا التغير فاستأذن الشاه لتبديل الهواء فأذن له وسافر إلى روسيا .

وأقام فى روسيا فترة،ذاع فيها أمره ، واستطاع إقناع القيصر بحسن معاملة

المسلمين والإذن لهم بطبع المصحف الشريف وبعض الكتب الدينية فأذن بذلك، وطبع القرآن لأول مرة فى روسيا بسبب طلب جمال الدين .

وبينما كان السيد فى سان بطرسبرج زارها شاه إيران ناصر الدين ، وأظهر رغبته فى لقاء السيد ، فبلغ السيد ذلك ، فلم يحفل به ولم يزر الشاه ، ثم سافر إلى ميونيخ فى ألمانيا .

وسافر الشاه إلى ميونيخ أيضاً وهناك التق بالسيد جمال الدين .

وذكر السيد فى بعض مجالسه فى الآستانة أن بعض كبراء الألمان جمعوه بالشاه فرغب إليه فى الذهاب معه إلى إيران ليجعله رئيس الوزراء ، واعتذر السيد بأنه عازم على الذهاب إلى باريس لمشاهدة معرضها ، ولكن الشاه ألح عليه حتى ألزمه الذهاب معه .

ويذكر تشارلز آدمز أن عودته هذه إلى إيران كانت عام ١٨٨٩ م ، وقد تلقاه الناس باعتباره زعيمهم المعبر عن أمانيهم ، والمفصح عن آمالهم فى تحسين حال البلاد السيئة وتخفيف آلامها ، ثم عاودت الشاه شبهاته الأولى وملكت عليه زمام نفسه ، وأحس جمال الدين بالخطر وقرر مغادرة طهران .

ويقول جمال الدين : إنه بعد أن مكث مدة فى إيران طلب الذهاب إلى أوربا فمنعه الشاه ، وكان الأفغانى قد سمع كلاماً خشناً فى حقه ، وآراء رديئة قالها للحجر عليه فى البلاد الإيرانية ، فأعمل الحيلة وذهب إلى مقام عبدالعظيم وهو من أحفاد بعض الأئمة ومقامه حرم من دخله كان آمناً ، ومكث هناك سبعة أشهر .

ويقال : إن جمال الدين استأذن الشاه فى المسير إلى مقام عبدالعظيم الذى يبعد ٢٠ كيلو متراً من طهران فأذن له ، فتبعه جم غفير من العلماء والوجهاء وكان يخطب فيهم ويستحثهم على إصلاح حكومتهم ، فلم تمض شهور حتى ذاعت شهرته فى أنحاء بلاد الفرس وشاع عزمه على إصلاح إيران ، فخاف ناصر الدين عاقبة ذلك وأرسل إلى مقام عبدالعظيم خمسمائة فارس قبضوا على جمال الدين وكان مريضاً فحملوه من فراشه وساقوه يخفره خمسون فارساً إلى حدود المملكة العثمانية .

ويقول جمال الدين : إنه أثناء إقامته فى مقام عبدالعظيم كتب عدة مقالات نشرها فى الجرائد فى مثالب الشاه وحث الشعب على خلعه .

وهناك روايتان فى طريقة خروج جمال الدين من مقام عبدالعظيم ، تقول أحداهما : إن الشاه هاجم هذا المقام ، واعتدى على حرمته كما سبق أن ذكرت وقبض على جمال الدين، وهو على فراش المرض،وأبعده إلى حدود الدولةالعثمانية.

وتقول الرواية الأخرى : إنه خرج بمحض إرادته من مقام عبد العظيم .

وكان خروجه أو إبعاده فى أواخر سنة ١٨٩٠ أو أوائل سنة ١٧٩١ على رواية تشارلز آدمز .

وبعد خروج الأفغانى من إيران اضطربت الروايات فى وجهته ، فقيل إنه ذهب إلى البصرة مستشفياً حتى أبل من مرضه ثم سافر إلى لندن ، ويستشف من رواية ثانية أنه ذهب إلى روسيا .

ولكن جمال الدين نفسه وضح وجهته فى رسالته التى كتبها بعد ذلك إلى ميرزا حسن الشيرازى فى سامراء . وعنوانها (من البصرة إلى سامراء) ويقول فيها جمال الدين :

« وأما قصتى وما فعله ذلك الكنود الظلوم معى، فما يفتت أكباد أهل الإيمان ويقطع قلوب ذوى الإيقان ، ويفضى بالدهشة على أهل الكفر وعباد الأوثان .

إن ذلك اللئيم أمر بسحبى وأنا متحصن بحضرة عبدالعظيم فى شدة المرض على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها فى الشناعة ، هذا كله بعد النهب والغارة .

ثم حملنى زبانيته الأوغاد وأنا مريض على برذون مسلسلا فى فصل الشتاء ، وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية ، وساقتنى جحفلة من الفرسان إلى خانقين وصحبنى جمع من الشرط . ولقد كاتب الوالى من قبل والتمس منه أن يبعدنى إلى البصرة . »

ولذلك فإنه من المؤكد أن جمال الدين أبعد إلى البصرة وبقى بها إلى أن شفى من مرضه .

ولكن إلى أين اتجه بعد إقامته فى البصرة شهوراً ؟

يبدو لنا من تطور الأحداث فى حياة الأفغانى أنه سافر إلى لندن وأنشأ بها جريدة سماها (ضياء الخافقين) خصصها للطعن فى الشاه ، وتهييج خواطر الأمة من رعيته عليه ، وكان يكثر من التردد على المحافل السياسية يخطب فيها ويحض على خلع الشاه .

وظل فى لندن ثمانية أشهر حتى بعث إليه السلطان عبد الحميد(١) رسالة على يد سفيره فى لندن رستم باشا يستدعيه إليه ، فأجاب بشرط السماح له بالعودة إلى أوروبا فى أى وقت يشاء وقدم الآستانة عام ١٨٩٢ . وأصبح الفيلسوف أسيراً فى قفص من ذهب .

وكان طلب السلطان عبد الحميد لجمال الدين الأفغانى من لندن إلى اسطنبول ليتحدث إليه فى الكف عن الطعن فى شاه إيران . وقال جمال الدين نفسه : إن السلطان كلمه فى الكف عن الطعن فى الشاه وذكر أن السلطان قال : إن سفير إيران طلب مقابلته ثلاث مرات فحجبه فى المرتين الأوليين ثم أذن له ، فطلب من السلطان أن يأمر الأفغانى بالكف عن التعرض للشاه بسوء ، وأن السلطان بدوره يطلب من جمال الدين الإعراض عن شاه العجم ، وقال جمال الدين كلمته الشهيرة:

— امتثالا لأمر خليفة العصر قد عفوت عن شاه العجم .. قد عفوت عن شاه العجم !

وقال السلطان عبد الحميد :

— يحق أن يخاف منك شاه العجم خوفاً عظيما .

٦ — نهاية الرحلة

قدم الأفغانى الآستانة للمرة الثانية والأخيرة عام ١٨٩٢ وانتهت حياته فيها يوم ٩ مارس ١٨٩٧ حيث قام برحلته الأخيرة فى الساعة العاشرة صباحاً يحمله أربعة من حمالى الآستانة على اكتافهم ، وحولهم بعض رجال الشرطة يخفرونهم .

(١) تولى السلطان عبد الحميد الملك سنة ١٢٩٣ هـ وخلع فى سنة ١٣٢٧ هـ وسجن فى سلانيك حتى قيام الحرب البلقانية فاعيد الى الآستانة وكانت مدة حكمه ٣٣ سنة وسبعة أشهر و١٣ يوما .

وسار خلف نعشه ثلاثة أشخاص هم جورج كوتشى مريده اليونانى ، وسهل باشا بن فضل باشا الملاباری ، وعلى قبودان راغب المصرى . ودفن فى مقبرة المشايخ المسماه (شيخلر مزارلغى) فى اسطنبول .

وكان قدوم الأفغانى إلى الآستانة بدعوة من السلطان عبدالحميد كما سبق أن ذكرت ، ويبدو أن الهدف هو القيام بوساطة بين شاه إيران وبين جمال الدين الذى كف عنه هجومه نزولا على رغبة خليفة العصر .

وقد أكرم السلطان عبدالحميد وفادة السيد جمال الدين ، وأنزله فى دار ، وخصص له عربة ، وراتباً شهرياً محترماً . وقال الشيخ إبراهيم اليازجى إن السلطان تلقى السيد بتعطفاته وإحسانه وأجرى عليه رزقاً واسعاً ، وكان كثيراً ما يدعوه ويخلو به لأغراض سياسية .

وقيل : إن السلطان كان يريد إرساله إلى أوروبا فى أمر سياسى ، ثم عدل عن ذلك ، وذكر السيد جمال الدين أن السلطان أثنى عليه لخدمته للاسلام ، وقال له :

— إنى أحب أن أجعل وطنك الآستانة إذ لا وطن لك .

وعرض عليه السلطان أن يزوجه فأبى ، وقال فى بعض مجالسه: إننى لو تزوجت لكان زواجى أغرب عند العارفين بحقيقة أمرى فى مصر من ذهاب الشيخ عليش بتلاميذه إلى أحد ملاهى الأزبكية وتعاطيهم كئوس البيرة جهراً .

وكان السيد جمال الدين يعامل السلطان عبد الحميد وهو الطاغية المتجبر معاملة الند للند ، بل كان يسرف أحياناً فى إذلاله . فقد حدث عند وصول السيد إلى الآستانة أن استأذن له على السلطان فقيل له : إنه مشغول ، وضرب له موعد جاء فيه فقيل له إنه مشغول ، وضرب له موعد آخر ، فقال : لا أعود ثم طلب بأمر السلطان لمقابلته فتمنع عن المقابلة ، وقال : هذه بتلك ! .

وتدخل رجال الحاشية السلطانية وأقنعوا الشيخ بما ذكروا له من كثرة أعمال السلطان وتقيده بالمواعيد فرضى ، وذهب لمقابلته .

وكان السلطان يتساهل مع السيد بما لا يتساهل مع أحد ، إذ يبلغه من الأقوال

الجارحة مايبلغه فلا يظهر له ولا لأحد من حاشيته غضباً على جمال الدين . وقد نقل عن السيد ذات يوم أنه قال فى مجلسه: (إن هذا السلطان سل فى رئة الدولة) فلم يفعل عبد الحميد الطاغية شيئا مع الشيخ الثائر .

وكثرت وشايات أعداء جمال الدين عند السلطان،وكان أشدهم وشاية (الشيخ أبو الهدى الصيادى) أقرب المقربين إلى عبدالحميد والمسيطر الحقيقى على قصر يلدز .

ومن الوشايات التى نقلت عن السيد إلى السلطان عبد الحميد أنه أفشى أسرار مقابلاته مع السلطان لمراسل جريدة التايمس اللندنية فى اسطنبول وكان هذا المراسل قد زار السيد وتحدث معه .

وقيل للسلطان : إن الشيخ عنده ديناميت فى بيته ، وإنه يحقر السلطان فى مجالسه ، فأمر السلطان بتفتيش بيته الذى أنزله فيه فغضب وذهب إلى السفارة الانجليزية ، وطلب إعداد وسيلة السفره من الآستانة . فاستدعاه السلطان بعد ذلك وقبله وقال له :

— لايفرق بينى وبينك إلا القضاء المحتوم .

وأنزله معه فى زورقه الذى يتنزه به فى بحيرة (يلدز) وما زال به حتى استرضاه .

وكان جمال الدين من المعجبين فى أول أمره بالداهية عبد الحميد ، حتى إنه كاتب علماء الفرس المجتهدين ، وأقنعهم بأن يعترفوا له بأنه خليفة المسلمين،فأجابوا وكتبوا إليه فى ذلك ، وكان هدف السيد هو دعوة المسلمين عامة إلى الاعتصام بعروة الخلافة ، والقيام بتدبير سياسى عظيم يعرقل التدخل الاستعمارى فى دار الاسلام ، ولكن الشيخ (أبو الهدى الصيادى) عرقل هذا العمل وتدخل عند السلطان وأقنعه بوجوب الانصراف عنه .

ووصل الاعجاب المتبادل بين السلطان وبين جمال الدين إلى حد ترشيح السيد شيخاً للإسلام فى عاصمة الخلافة إذ ذاك ، مما ألب عليه الشيخ الصيادى الذى كان طامعاً فى هذا المنصب .

واستطاع عبد الحميد أن يضع جمال الدين داخل القفص الذهبي ، حتى أن السيد لم يكن عنده قلم ولا دواة ولا ورق ، أي أنه كان ممنوعاً من الكتابة ، كما روى ذلك الشيخ عبد القادر المغربي أحد تلاميذه الذين التفوا حوله في دار الخلافة .

وقد وضع السيد تحت المراقبة الشديدة ، ومن أشهر الروايات التي تروى عن ذلك قصة مقابلته للخديوى عباس حلمى ، وقد تحدث جمال الدين عن هذه الرواية قائلا :

« إن الخديوى كان شديد الرغبة في لقائي لما كان يسمع عني من أولادي وأحفادي في مصر ، فأرسل إلى في ذلك ، فقلت : لابد في ذلك من إذن السلطان فاستأذن غير مرة بواسطة بعض المابين ، فكانوا يرجئون ويسوفون ويجمجمون في الجواب ولا يفصحون . وبينما أنا جالس في الكاغدخانة (متنزه مشهور في الآستانة) أصيل يوم من الأيام كعادتي ، وإذا أنا بفارس قد أقبل على وترجل مسلماً فقلت : من أنت ؟

قال : عباس حلمى . فمكثنا ساعة زمانية نتحدث ، وطار الجواسيس إلى السلطان بالخبر ، فأرسل إلى ، فلما لقيته قال لي :

— أتريد أن تجعلها عباسية ؟

فقلت :

— إن بني العباس قد انقرضوا وبنو على أولى .

وعلق جمال الدين على هذه الحادثة قائلا : إن السلطان يريد عباس حلمى ، وقال السيد لمحدثيه :

— وهل هي خاتم بيدي فأضعها في أي أصبع شئت .

وواضح من هذه الحادثة أن السلطان بلغ به الذعر مبلغاً جعله يخشى جمال الدين حتى على الخلافة نفسها . وظن السلطان بإيعاز من الشيخ الصيادى أن جمال الدين يريد تولية عباس حلمى خلافة المسلمين ، وأن يجعل الخلافة عباسية بهذا المعنى .

عاش جمال الدين فى الآستانة محاطاً بالجواسيس ، محروماً من الكتابة ، لايؤذن له بقلم ومداد وورق . ويتبعه الجاسوس أينما ذهب .

وكان من عادة الشيخ — كما سبق أن ذكرنا — أن يركب عربته كل يوم بعد العصر فيذهب إلى متنزه الكاغدخانة للترِيض ، ففطن لجاسوس كان يتبعه ماشياً ، فقال لجماعة السلطان فى المابين :

— إنكم قد أعطيتمونى مركبة وجعلتم لى جاسوساً بغير مركبة ، فإذا أنا أسرعت بعربتى طفق يعدو ورائى وهو يلهث كالكلب ، ولا يدركنى ، فهلا رحمتموه فأعطيتموه مركبة ليدركنى أنى سرت !

ويقول بعض مريدى الشيخ : إنه قال هذا الكلام للسلطان عبد الحميد نفسه .

لقد عاش جمال فى ضيافة السلطان عبد الحميد وتحت مراقبته مراقبة من يخشى منه على المملكة والخلافة .

واستطاع السلطان الأحدب الداهية أن يدير المعركة بين جمال الدين وبين أبى الهدى الصيادى ، فحرض الأخير عليه حتى زعم الناس أن جمال الدين ليس من أحفاد الحسين بن على رضى الله عنهما ، وأنه ثبت فى دوائر الدولة الرسمية أنه مازندرانى من أجلاف الشيعة ، وأنه مارق من الدين كما يمرق السهم من الرمية .

وقصة الصراع بين جمال الدين وبين الصيادى من القصص المثيرة فى حياة الأفغانى ، ولكن هذا الصراع استطاع فى النهاية أن يقضى على جمال الدين فى قلب الآستانة شهيداً مسموماً .

فى غرفة صغيرة بالآستانة كان صوت خافت يرتفع مردداً فى حشرجة :

الله . . الله . . الله

ولم يكن بالغرفة الصغيرة غير رجلين قبع أحدهما تحت قدمى الرجل ذى الصوت الخافت ، وظل الرجل الآخر يدور حول سريره حائراً لايدرى ماذا يصنع .

وظل الصوت الخافت يتردد ، وصاحبه يصلى ، وقد ازدادت عيناه النافذتان

لمعانا حتى امتدت يد الموت. فأطفأت هذا اللمعان ، وانكفأ خادم جمال الدين على سيده يبكيه ، ويمسك بيده الواهنة التى أصبحت لاتقوى على الحركة بعد أن كانت تزلزل عروش السلاطين .

وسحب الخادم غطاء فوق جسد السيد الذى أسلم روحه فى الساعة السابعة والدقيقة ١٣ من صباح الثلاثاء ٩ مارس عام ١٨٩٧ ، وخرج الرجل الآخر من غرفة السيد حزينا منكس الرأس ينعى إلى الدنيا رجلاهز بأفكاره الشرق والغرب .

وكان هذا الرجل يونانيا إسمه جورج كوتشى وكان موظفاً سابقاً فى محافظة القاهرة لازم الأفغانى مدة طويلة وأقام فى الآستانة قريباً منه لا يفارقه إلا فى ساعات النوم ، وفى ليلة الثلاثاء انصرف جورج إلى بيته تاركا السيد فى أسوأ حالات المرض ، فقد أجريت له ثلاث جراحات ، قطع فى آخرها جزء من لسانه واستؤصل فكه الأسفل بعد أن تمكن السرطان منه .

فى مطلع الصباح دق الدكتور هارون باب جورج كوتشى وأيقظه من نومه ، قائلا له :

ـــ أدرك السيد فقد حضرته منيته ، وقد تركته يحتضر ، فأسرع إليه .

وذهب جورج إلى بيت السيد ليستمع إلى صوت خافت يردد فى خشوع .

الله . . الله . . الله

لقد كان اللسان الذى امتد إليه داء السرطان ينطق ، ولم يستطع الألم أن يمنعه من ترديد كلمة ملأت قلب صاحبه ووجدانه منذ رأى نور الحياة .

ومد السيد يده ليمسك بيد صديقه جورج ، وكلما اشتدت عليه الحشرجة حول عينيه إليه كأنما يرتاح لوقوع عينيه على عينيه ، ثم أسلم الروح ، وملأت الدموع عينى جورج كوتشى وذهب باكياً إلى قصر يلدز ينعى السيد جمال الدين الأفغانى أشهر رجل فى الشرق كله إلى رجال السلطان .

وامتلأ بيت السيد بعد لحظات بالأطباء وضباط الشرطة والجواسيس ، وأثبت الأطباء وفاة الرجل الخطير ، وامتدت أيدى الجواسيس إلى أوراق السيد وحاجياته يقلبونها ثم يحملونها إلى قصر السلطان .

وأرسل جورج إلى أصدقاء السيد يخبرهم بوفاته ،ومضت ساعتان ولم يحضر أحد منهم بل حضر إلى البيت أربعة من حمالى الآستانة حملوا جثة أخطر رجل فى المشرق وسار معهم رجال الشرطة إلى المقبرة حيث دفن جمال الدين الأفغانى فى الساعة العاشرة .

كانت جثة الأفغانى بعد موته تخيف السلطان ، كما كان يخاف منه فى حياته، فلم يطق بقاء جثته ميتاً أكثر من ساعتين ، وأمر بدفنه فى الساعة العاشرة صباحاً بعد وفاته بأقل من ثلاث ساعات ،وانبث جواسيس السلطان يشيعون فى الآستانة الأخطار التى سوف يلقاها من يشيع جنازته،وصدرت أوامر السلطان إلى الجرائد العثمانية بأن لا تكتب فى شأنه سطراً واحد .

ولم يعرف الناس عن أسرار مرض جمال الدين ووفاته شيئاً يذكر ، فقد قيل إنه أصيب بألم فى إحدى أسنانه وأشار عليه الطبيب بخلعها ، فحدث التهاب فى موضعها كان يعالجه الطبيب ، ثم ظهر السرطان فى فكه وأجريت له جراحة لم تفد شيئاً ، ثم أجريت له جراحتان بعد ذلك ، قيل إنه قطع فيهما جزء من لسانه واستوصل الفك الأسفل ، وذكر أن السلطان كلف عدداً من أطبائه الخصوصيين بعيادة السيد على التناوب ويرسل للاستفسار على صحته كل وقت ، وأن (عزت العابد) كان يعوده كثيراً موفداً من قبل السلطان .

ولكن هذه الأقوال التى ظلت تتناثر على ألسنة الرواة لم تكن إلا أكاذيب ، هدفها الدفاع عن موقف السلطان من الأفغانى ، فقد ظل الرجل خمسة أشهر يعانى ألم السرطان وعذابه ، وقطع السلطان عنه راتبه منذ زمان بعيد وقبل مرضه . فاشتدت عليه الحاجة والفاقة فى مرضه ورغم ذلك ظل رجال السلطان وحاشيته يشيعون أنه يفيض عليه النعم ، ويغمره بالإحسان .

ومن شواهد حاجة السيد الأفغانى خلال فترة حياته الأخيرة أن صديقه وملازمه جورج كوتشى أنفق مائتى ليرة عليه ، ولما عرف السلطان ذلك بعد وفاة السيد أراد أن يكمل تمثيل الرواية الخادعة ،فأمر بإعطاء المبلغ لصديق السيد ، ولكن لجورج لم يقبل هذا العرض .

وواضح أن مرض جمال الدين لم تعرف أسراره، ولم يعرف شيء عن طرق علاجه ، وكل ماعرف يوم وفاته أن الدكتور هارون عاده قبيل صعود روحه بساعةفى الصباح الباكر،ولم يعرف على وجه التحديد لماذا حضر الدكتور هارون إلى بيت جمال الدين فى تلك الساعة المبكرة ، فهل استدعاه السيد أو حضر وحده؟.

وحتى هذا الطبيب الذي ذكر اسمه لم يعرف من هو ولا ماهى كنيته . . وكل ما نعرفه عنه أنه الدكتور هارون .

وأعجب من كل ذلك أن السيد الأفغانى مرض خمسة أشهر ، ولم يذكر واحد من مريديه القصة الحقيقية لعلته ، ولا علاقاته بقصر يلدز ، بل كانت حاشية السلطان تضلل الناس، وتذكر دائماً أن أطباء السلطان يشرفون على علاج السيد، وأن الانعامات والأموال تنهال عليه. ثم تظهر الحقيقة الواضحةوهى أن الشخص الوحيد الذى كان ملازماً لأعظم حكيم فى الشرق هو (جورج أفندى كوتشى) وحتى هذا الرجل لانعرف عنه شيئاً إلا شدة تعلقه بجمال الدين،فهو ليس واحداً من تلاميذه أو الملازمين له بسبب علمه ، ولكنه مريد معجب ، كما قال عنه بعض من عرفوه .

وقد تواترت الروايات بأن جمال الدين مات شبه مقتول ، وتدل الملابسات والقرائن على ترجيح هذه الرواية ، وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان فى كتاب (حاضر العالم الإسلامى) أنه لما اشتد التضييق على السيد جمال الدين أرسل إلى مستشار السفارة الانجليزية يطلب منه إيصاله إلى باخرة يخرج بها من الآستانة، فجاءه المستشار وتعهد له بذلك ، فلما بلغ السلطان الخبر أرسل إليه أخذ حجابه يستعطفه أن لا يمس كرامته إلى هذا الحد ، ولا يلتمس حماية أجنبية ، فثارت فى نفسه الحمية والأنفة ، وأخبر مستشار السفارة بأنه عدل عن السفر ، ومهما كان فليكن ، ولكن الرقابة عليه بقيت كما كانت ، وبعد أشهر من هذه الحادثة ظهر فى فمه مرض السرطان فصدرت الإرادة السلطانية بإجراء عملية جراحية يتولاها الدكتور قمبورزاده اسكندر باشا كبير جراحى القصر السلطانى،فأجرى له العملية الجراحية ، فلم تنجح ، وما لبث إلا أياماً قلائل حتى فاضت روحه . ومن هنا تقول الناس فى قصة هذا السرطان ، وهذه العملية الجراحية لقرب عهد المرض بتغير السلطان على السيد ، وما كان معروفاً من وساوس السلطان عبدالحميد

فقيل ان العملية الجراحية لم تعمل على الوجه اللازم لها عمداً ، وقيل إنها لم تلحق بالتطهيرات الواجبة فنياً ، بحيث انتهت بموت المريض .

وذكر الأمير شكيب أن المستشرق المعروف الكونت (لاون استروروج) حدثه أن جمال الدين كان صديقه فدعاه إليه بعد إجراء العملية الجراحية ، وقال له إن السلطان أبى أن يتولى العملية إلا جراحه الخاص ، وإن الكونت رأى حال المريض ازدادت شدة بعد العملية، ورجا منه أن يرسل إليه جراحاً فرنسياً مستقل الفكر ، طاهر الذمة ، لينظر فى عقب العملية ، فأرسل إليه الدكتور (لاردى) ، فوجد أن العملية لم تجر على وجهها الصحيح ، ولم تعقبها التطهيرات اللازمة ، وأن المريض قد تعب بسبب ذلك ،وعاد استروروج ، وأنباه بهذا الأمر المحزن ، ولم تمض أيام حتى فارق جمال الدين الحياة .

وذكر واحد ممن كانوا فى خدمة عبد الحميد ، بعد أن روى له الأمير هذه القصة ، أن قبور زاده اسكندر باشا كان أطهر وأشرف من أن يرتكب مثل تلك الجريمة ، وحقيقة الواقعة أنه كان بالآستانه طبيب أسنان عراقى اسمه(جارح) يتردد كثيرا على جمال الدين ، ويعالج أسنانه ، وكانت نظارة الظابطه (إدارة الأمن العام) قد استمالت (جارح) هذا بالمال ، وجعلته جاسوساً على السيدوصار له عدواً فى ثياب صديق ، وقال صاحب هذه الرواية : إنه أراد مرة أن يمنع الطبيب المذكور من الاختلاط بجمال الدين ، فأشار إليه ناظر الضابطه إشارة خفية ، بأن يتركه ، وفهم من الإشارة أنه يذهب إلى السيد ، ويعالج أسنانه ، بعلم من النظارة ؛ والسيد لايعلم بشيء من ذلك ؛ ويطمئن إلى (جارح) ويثق به ؛ ولم تمض عدة أشهر حتىظهر السرطانفى فك السيد من الداخل ؛ وأجريت له عملية جراحية ؛ فلم تنجح ؛وجارح هذا ملازم للمريض ؛ وبعد موته كانوا يرونه دائماً حزينا كئيباً ، ويبدو على وجهه الوجوم والخزى ، مما جعلهم يشتبهون أن يكون له يد فى إفساد الجرح بعد العملية ، أو فى توليد المرض نفسه من قبل بوسيلة من الوسائل . ولما مات السيد بدا الندم على الطبيب الآثم ، وشعر بوخز الضمير يؤنبه على خيانته هذا الرجل العظيم .

ومضت قصة موت جمال الدين الأفغانى ببساطة ، ولم تذكر عنه جرائد

الآستانة شيئاً تطبيقاً لأوامر السلطان ، ونشرت عنه صحافة مصر كثيراً ومنعت هذه الصحف من دخول بلاد السلطنه العثمانية .

وكانت الشائعات أقوى من كل سطر كتب فى الصحافة فهناك إجماع على أن السيد مات بداء السرطان ،كما ذكرت المؤيد والمقطم والهلال والبيان وغيرها من الصحف والمجلات ،ولكن الشائعة التىملأت القاهرة هى أن السيد مات مسموماً، وأن السلطان هو الذى قتله .

وقد ذكر السيد رشيد رضا هذه الشائعة فى كتابه عن الشيخ محمد عبده ، ولكنه كان رجلا طيباً لم يشأ أن يقف طويلا عند هذا الكلام، فقال : إنهم ذكروا أن عبدالرحمن الكواكبي مات مسموماً فى القاهرة كما مات جمال الدين الأفغانى مسموماً فى الآستانه .

وقد حاول كثيرون من الباحثين تحقيق طريقة وفاة عبدالرحمن الكواكبي ، وثبت لهم بعد جمع المعلومات ، وسؤال الرواة ودراسة ظروف وفاة الكواكبي أنه مات مسموماً بيد عباس حلمى الخديوى السابق .

ولكن أحداً لم يحاول تحقيق طريقة وفاة السيد جمال الدين ، بل إن أحداً لم يحاول سؤال جورج كوتشى الذى كان ملازماً للسيدخلال فترة مرضه ووفاته.

لقد كانت قصة رحلته الأخيرة . . رحلة الموت من أغرب القصص التى تضاربت فيها الروايات ، وقد لخص محمد رشيد رضا هذه الروايات فى كتابه (تاريخ الأستاذ الإمام) فقال :

المشهور أنه أصابه وجع فى إحدى أسنانه أو أضراسه فأشار الطبيب بقلعها فحصل له التهاب فى موضعها كان يعالجه له الطبيب ثم ظهر فى فكه السرطان فعملت له عملية جراحية فلم تفد ولم يلبث أن توفى على أثرها فشاع فى كثير من البلاد أنه مات مسموماً كما شاع مثل ذلك فى موت الأستاذ الإمام وموت السيد عبدالرحمن الكواكبي .

ولما توفاه الله تعالى صدرت الإرادة السلطانية إلى الجرائد العثمانية بأن

لاتكتب فى شأنه شيئاً بل ضبطت الحكومة فى سورية جميع الجرائد والمجلات المصرية التى أبنته ، وأعنى غير الممنوع منها كالهلال والبيان .

كما جاء فى المؤيد الذى صدر فى ٥ شوال سنة ١٣١٤ و ٩ مارس سنة ١٨٩٧ ما نصه :

« علمنا من أخبار الآستانة العلية أن صحة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ جمال الدين الأفغانى فى غاية الاعتلال شفاه الله وعافاه . وقد انقطع حضرته عن الكلام بالمرة إثر العملية الجراحية الثالثة التى عملت له أخيراً فقطع فيها جزء من لسانه واستؤصل الفك الأسفل وجلالة مولانا السلطان قد كلف جملة من أطبائه الخصوصيين بعيادته على التناوب ويرسل للاستفسار عن صحته كل وقت رسلا وكثيرا ما يتوجه (عطوفتلو عزت بك العابد)من قبل الحضرة السلطانية لعيادته فيجد فضيلة السيد من هذه العناية مايخفف آلامه لطف الله به . »

وكتبت جريدة المؤيد فى عدد ١٠ شوال و ١٥ مارس ١٨٩٨ مايلى :

« إنا لله وإنا إليه راجعون .

نعت إلينا أخبار الاستانة العلية المغفور له الأستاذ الفاضل والفيلسوف الشهير السيد جمال الدين الأفغانى .

« توفى رحمه الله فى الساعة ١٣,٧ دقيقة من صباح يوم الثلاثاء الماضى خامس شوال(٩ مارس) الماضى (كذا) حيث كان يعوده كثير من الحاشية والخدم الذين خصصهم له مولانا السلطان الأعظم فى منزله ببشكطاش .

ولما حضرته الوفاة كان فى خدمته كذلك حضرةجورج افندى كوتشى أحد موظفى محافظةمصرسابقاً حيث يقيم معه مدة وهوالذى نعاه إلى المابين الهمايونى [١] فصدرت الإدارةالشاهانية إلى سعادة حسن باشا ضابط بشكطاش أن يعد جنازته ويشيعها بالاحتفال اللائق . وبلغ الخبر جماعة من حضرات العلماء والأعلام فبادروا إلى منزل الفقيد ، كما بادر إليه كثيرون من رجال الدولة وبينهم سعادة سهل باشا نجل دولتلو فضل باشا العلوى وحضرة على بك راغب المصرى من

---

(١) المابين الهمايونى هو ديوان السلطان العثمانى فى اسطنبول .

ضباط البحرية العثمانية . وقد شيعت جنازته بالاحتفال اللائق حيث دفنت جثته في قرافة « شيخلرمزارلغى» أى مقبرة المشايخ .

« ولقد أسف جلالة السلطان عليه شديد الأسف كما حزن عليه أصدقاؤه وكبار المباين الهمايونى الذين كانوا يعرفون فضله ويقدرونه حق قدره .

وجاء خبر وفاة الأستاذ الفقيد رحمه الله أمس تلغرافياً على حضرة الفاضل إبراهيم أفندى اللقانى فأبلغنا إياه ولكن كان ذلك بعد ماطبع أكثر الجريدة . ثم جاءنا كتاب خصوصى من الآستانة العلية مساء أمس يفصل الخبر بما تقدم . ولاشك أن وفاة هذا العالم العظيم تحزن جميع العارفين بفضله وما كان منفرداً به من قوة الحجة والعارضة فى الكتابة والخطابة مع التضلع الزائد من العلوم العقلية والنقلية وسعة الاطلاع فى المعارف الحديثة . فنحن نعزى أنفسنا وكل أصدقائه وتلامذته على وفاته ونسأل الله تعالى له الرحمة والرضوان » .

وكتبت جريدة المقطم الصادرة فى ١٥ مارس ١٨٩٧ مايلى :

« بلغنا نعى العلامة الشهير ، الغنى عن الوصف والتعريف ، السيد جمال الدين الأفغانى بعد صدور جانب من المقطم يوم السبت فذكرناه فى الجانب الآخر . وما ذاع هذا النبأ فى أطراف العاصمة حتى جل الخطب على كل أديب ، واشتد الأسى على كل من عرف فضل رجل طبق صيته المشارق والمغارب ، وكان مناراً للحرية والعرفان فى كل مكان احتله ، وتعلقت بهأفئدة النجباء والأذكياء فى كل بلاد أقام بها ، وقعت تعاليمه وآراؤه فى نفوس الأدباء وقعاً عجيباً ، حتى إنك لتراهم فى كل جهة من جهات المشرق يتحدثون فى مجالسهم بمواهبه ويتناقلون أقواله ، فقد الشرق به عالماً يهتدى بعلمه ، وركناً يعتمد عليه ، وداعياً إلى الحرية يقتدى به فى الدعوة إليها،ومقداماً لايهاب كبيراً فى المجاهرة بضميره ولايراعى أميراً فىماليس من رأيه ، ولسنا ندعى فى هذه العجالة إيفاءه حقاً من حقوقه. المتعددة فى عالم الأدب والعلم والحرية ، على أنا سننشر ترجمته مفصلة فىالمقتطف وكانت وفاته رحمه الله يوم الثلاثاء فى التاسع من هذا الشهر بداء السرطانفراح مأسوفاً عليه مبكياً منجميع تلامذته ومريديه.واحتفل بمأتمه فى الآستانة احتفالا يليق بمقامه ومكارم الحضرة السلطانية فنعزى جميع أنصار الحرية ومحبى العلوم

والفضائل عن فقده ، ونسأل له الرحمة والرضوان ولهم طول البقاء من بعده » .

ثم جاء فى العدد الذى صدر من المقطم فى ١٨ مارس ١٨٩٧ .

« كتب إلينا صديق يوثق بروايته تفصيل وفاة المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى الجارى أن ساعة وفاة السيد قد دنت فقصد جرجى أفندى كوتجى صديقه الأمين وأيقظه من نومه قائلا، أدرك السيد فقد حضرته منيته وقد تركته وهو يحتضر فأسرع جرجى أفندى إلى منزله فوجده فى حالة النزع وليس عنده غير خادمة فلما راه أمسك بيده وكلما اشتدت عليه الحشرجة حول عينيه إليه ، كأنه يرتاح لوقوع عينيه على عينيه ، ثم أسلم الروح فى الساعة السابعة والدقيقة ١٣ من صباح ذلك اليوم . فأبلغ جرجى أفندى المابين خبر وفاته فى الحال فجاء بعض الأطباء وشاهدوه ثم أثبتوا المابين وفاته فصدرت الإرادة إلى حسن باشا ضابط بشكطاش بضبط أوراقه وسائر تركته ، فحضر حسن باشا ومعه بعض البوليس وبعض الجواسيس ودققوا فى البحث والتفتيش وضبطوا كل ما كان باقياً عنده . وفى الساعة العاشرة أمروا بدفن الجنازة فى مقبرة بجهة نشان طاش اسمها « شيخلر مزارلغى » فأرسل جرجى أفندى إلى أصدقائه يخبرهم بوفاته فلم يحضر أحد منهم غير سهل باشا بن فضل باشا الملاباری وعلى قبودان راغب المصرى ثم حمله أربعة من حمالى الآستانة على أكتافهم وسار بعض رجال البوليس حولهم يخفرونهم ودفن كما يدفن أقل إنسان فى بلاد آل عثمان وبقى السيد رحمه الله خمسة أشهر يقاسى ألم السرطان وعذابه ، وقطع السلطان عنه راتبه منذ زمان فاشتدت عليه الحاجة والفاقة فى مرضه ، ورجال المابين يشيعون أن السلطان يفيض عليه النعم ويغمره بالإحسان . انتهى بمعناه . هذا وا أسفاه ما يعامل به الفضلاء إذا قضوا نحبهم فى دار السعادة » .

وكان المقطم ذكر فى العدد الذى صدر فى ١٣ مارس و ٩ شوال خبر اشتداد المرض على السيد وقال « ويقال : إن السلطان ينفق عليه ١٨٠ ليرة فى الشهر آملا أن يشفى من مرض قلت فيه حيل الأطباء » وهذا يدل على أن المقطم كان يكتب ما يبلغه بدون تحامل . ولكن أصحابه لم يذكروا ترجمته فى المقتطف كما وعدوا .
وذكر الشيخ رشيد رضا فيما وصل إليه من أنباء ما يلى :

« وقد كتب إلينا بعض المطلعين على الجرائد المصرية والمتلقفين لأخبار

السيد من العارفين ما يؤيد رواية المقطم الأخير في الجملة وزاد أن جرجى أفندى أنفق على السيد مئتى ليرة وأن المابين لما بلغه ذلك بعد موت السيد أراد أن يعطى المبلغ لجرجى فلم يقبله ،ومما رواه الكاتب من خبره عندما دعى إلى السيد وهو محتضر أنه قال « دخلت عليه وهو وحده يعانى سكرات الموت فاحترت ماذا أصنع والمحتضر يصلى أو يذكر الله الله الله ، وأنا أدور من حول سريره حتى استأثر الله به » .

وأمام الأقوال المتضاربة عن طريقة وفاة السيد جمال الدين ، فإن الشك في امتداد يد السلطان عبدالحميد وجواسيسه إليه أمر يوجب الاهتمام .

وقد زعم بعض الأطباء أن علةالسرطان نتجت عن كثرةشرب السيد للشاى وتدخينه للسيجارة واستكثاره من الملح في طعامه ، وسمع ذلك بعض مريدى جمال الدين فقال :

الملح والشاى مع الدخان أودت بروح شيخنا الأفغانى

وقد ذكرت من قبل أن الأفغانى توفى في اسطنبول عام ١٣١٥ ﻫ (١٨٩٧م) ودفن في مقابر العلماء هناك واسمها (شيخلر مزارلغى) في نشانطاش ، وكاد قبره يندرس لو لم يتداركه (المستركراين) الأمريكى فبنى له ضريحاً في اسطنبول .

ونقلت رفات جمال الدين من الآستانة إلى بغداد ، فتألفت لجنة من كبار أدبائها ، وأحرار رجالها لاستقبال جثمان السيد ، ولما وصل إليها الجثمان احتفلت به الحكومة العراقية والشعب العراقى احتفالا عظيما ، وألقيت الخطب والقصائد في تعديد مناقبه ، والإشادة بذكره ، والتنويه بفضله ، ثم نقل الجثمان بطائرة خاصة إلى بلاد الأفغان وذلك في شهر يناير ١٩٤٤ وحين وصلت رفاته ، تقدم ملك الأفغان محمد ظاهر شاه ، ورئيس وزرائها وحملا معاً جثمان الفيلسوف على كتفيهما تكريماً وتعظيما لقدره .

ووضع جثمان السيد في ضريحه الذى يتوسط جامعة كابول ، وقد اشترك ملك الأفغان في تصميم الرسومات الهندسية لهذا الضريح ، وتولى بنفسه الإشراف على إعداده بما يليق بعظمة جمال الدين .

صاحب العروة الوثقى

أنشأ جمال الدين جريدة العروة الوثقى فى باريس وصدر العدد الأول منها فى جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ (١٣ مارس ١٨٨٤) وظهر منها ثمانية عشر عدداً فى ثمانية أشهر ، وكان آخر أعدادها صادراً فى ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١ (١٧ أكتوبر ١٨٨٤) .

وكان اسم الجريدة بالنص الكامل (العروة الوثقى لا انفصام لها) ، وتولى جمال الدين الأفغانى إدارة سياستها ، كما كان الشيخ محمد عبده محررها الأول .

وقد روى الأمير شكيب أرسلان عن الشيخ محمد عبده أن الأفكار التى ظهرت فى العروة الوثقى كلها للسيد جمال الدين ، ليس للشيخ محمد عبده منها فكرة واحدة ، أما العبارة فإنها كلها للشيخ محمد عبده ليس للسيد منها كلمة واحدة .

وشارك فى ترجمة أخبار هذه الجريدة الميرزا محمد باقر البواناتى ،وهو رجل من أهل فارس ، وواحد من مريدى جمال الدين الأفغانى ، وقد تنقل إلى الهند والصين وبخارى وإنجلترا وإيطاليا وفرنسا ، وذهب إلى بغداد ، ومكث فى بيروت زهاء ثلاث سنوات تزوج أثناءها ثم غادر بيروت إلى بلاده فارس مغضوباً عليه من حكومة الخلافة العثمانية . ومكث فى طهران زهاء سنتين ثم توفى فيها . وقد وصفه تلميذه المستشرق الشهير (الدكتور إدوارد برون) وقال إنه أول أساتذته وإنه عرفه فى سنة ١٨٨٣ م ، وقال إنه كان عالماً فذاً فى العلوم الدينية واللغات القديمة والحديثة مثل العبرية واليونانية والإنجليزية والعربية والفارسية والهندية ، وإنه كان يتكلم الإنجليزية بغاية الفصاحة ويكتب بها بأساليب الفلاسفة والعلماء ، كما كان قوى الحجة لدرجة باهرة .

وكان الميرزا محمد باقر أثناء إقامته فى لندن يعرب كل ما يهم العالم الشرقى من المقالات المنشورة فى الجرائد الإنجليزية ويرسله إلى العروة الوثقى فى باريس ، وكانت هذه المقالات من أكبر المساعدات التى يقدمها الميرزا محمد باقر إلى أستاذه . لأنها كانت تفتح طريق المناقشة السياسية فى المشكلات التى تهم الشرقيين

فى ذلك الوقت ، وتلقى الأضواء على اتجاهات الآراء المختلفة حول المشكلات السياسية القائمة .

وقصة اتصال ميرزا باقر بالسيد جمال الدين من القصص المثيرة ، فقد حدث حينما كان السيد وتلميذه الإمام محمد عبده فى باريس يصدران العروة الوثقى أن أرسل إليهما بطاقة الاستئذان رجل اسمه (ميرزا محمد باقر) قال إنه يعرف السيد معرفة شخصية . فقال السيد : أنا لا أعرف رجلا بهذا الاسم وأذن له فدخل ، فإذا هو رجل قد عرفه فى ثغر (بوشير) فى الخليج العربى إذ جاءه السيد مع جماعة من الأفغان فى طريقهم إلى الحجاز ، وكان اسمه (ميرزا يوحنا) وهو إيرانى تنصر ، وصار داعية للنصرانية ، فبدأ السيد يجادله ، فبدرت منه كلمة طعن فى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأمر السيد من معه من الأفغانيين بضربه فضربوه ، حتى خرج يزحف . ثم عرفوا بيته فأرادوا إحراقه عليه فحيل بينهم وبين ذلك ، ثم سافروا إلى الحجاز .

فلما دخل على السيد فى باريس عرفه وبادر هو إلى ذكر ما كان من أمر تنصره ثم عودته إلى الإسلام ورجوعه إلى لقبه الأول (باقر) وكان يعرف أيضاً باسم (إبراهيم جان المنصر) ، وأخبر السيد أنه كفر عن ذنبه الأول فصار داعية للإسلام ، وعرض عليه استعداده لخدمته فى إدارة العروة الوثقى ، فكان يترجم لها ما يهمه من الجرائد الإنجليزية .

وقد اشتغل ميرزا باقر مترجماً للإمام محمد عبده فى لندن أثناء زيارته لها ، ومحادثاته مع كبار رجال الدولة البريطانية فى مسألة مصر والسودان .

واشتهر هذا الرجل بأنه من أبرع المترجمين حتى إن أحد الهنود مدح ملكة بريطانيا بقصيدة باللغة الأوردية أو الفارسية ، فلما ترجمت لها معانيها أمرت بترجمتها إلى الإنجليزية نظما ، فلم يوجد فى لندن من هو أقدر من ميرزا باقر على ترجمة تلك القصيدة شعراً إلى اللغة الإنجليزية لأنه كان متقناً للغتين كل الإتقان ، وقد أمرت الملكة للمترجم بخمسمائة جنيه فردها إليها ، وطلب منها مكافأته بدخولها فى الإسلام .

وكان ميرزا باقر هذا آية من الآيات فى الذكاء وسرعة الحفظ وقوة الاستنباط . حتى قيل إنه كاد يكون حافظاً للكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد . كما كان حافظاً للقرآن ، وقد عنى بجمعه على ترتيب النزول للاستعانة به على الفهم والاستنباط .

ومن مزايا هذا الرجل الإيرانى (ميرزا باقر) أنه كان من أقدر العلماء على إقناع الملاحدة بالإسلام ، وهو الذى أقنع الكاتب التركى الشهير (أحمد مدحت) صاحب جريدة (ترجمان حقيقت) بالعودة إلى الإسلام بعد إلحاده . وقد قال هذا الكاتب إنه التقى بميرزا باقر فى بغداد ووقعت بينهما مناظرات كثيرة أزالت من نفس (أحمد مدحت) ما علق بها من الشبهات والشكوك ، واطمأن لحقيقة الإسلام .

وبعد توقف (العروة الوثقى) عن الصدور ، التقى (ميرزا باقر) بالشيخ محمد عبده فى بيروت ، واشتركا مع بعض الشخصيات الظاهرة فى تأسيس جمعية سياسية دينية موضوعها التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة وإزالة الشقاق بين أهلها ، والتعاون على إزالة ضغط أوروبا عن الشرقيين ، ولاسيما المسلمين منهم ، وتعريف الإفرنج بحقيقة الإسلام وكان (ميرزا باقر) سكرتيراً لهذه الجمعية ، التى انضم إليها (مؤيد الملك) أحد وزراء إيران ، وحسن خان مستشار السفارة الإيرانية فى الآستانة .

وكان دور (ميرزا باقر) فى العروة الوثقى قاصراً على ترجمة بعض المواد من الصحف الإنجليزية إلى اللغة العربية لنشرها فى الجريدة .

وقد سبق إنشاء الجريدة إقامة جمعية العروة الوثقى ، وهى جمعية سياسية ، كان الغرض منها إعادة الحكم الإسلامى وهداية الإسلام إلى ما كان عليه من الطهارة والعدل والكمال فى العصر الأول بتأسيس حكومة إسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة فى الدين ، وما تقتضيه حالة العصر لمجد الإسلام فى أمور الدنيا ، ويتبع هذا إنقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار . وأما الغرض القريب منها فهو إنقاذ مصر والسودان من الاحتلال البريطانى .

وكان لهذه الجمعية تعليمات كتبها الشيخ محمد عبده ، وكذلك كان لها قسم يؤديه

من ينضم إليها من الأعضاء ، ولكن قانونها الأساسى مفقود لم ينشر ، ويبدو أنه لم يكن مكتوباً حتى لا يقع فى أيدى غير أعضائها .

كما يبدو أن اجتماعات عقدت لأعضاء هذه الجمعية فى مكة أثناء مواسم الحج فقد كتب فى فاتحة العدد الأول من جريدة العروة الوثقى :

« وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين وفيها موسم الحج العام فى كل عام يجتمع إليه الشرقى والغربى ويتآخى فى مواقفها الطاهرة الجليل والحقير والغنى والفقير ، كانت أفضل مدينة ، تتوارد إليها أفكارهم ثم تنبث إلى سائر الجهات » .

كما يظهر أن جمال الدين كان سباقا إلى تأسيس جمعية (أم القرى) التى دعا إليها عبد الرحمن الكواكبي فيما بعد .

وانضم لجمعية العروة الوثقى أفراد من الهند ومن مصر ، فقد ذكر محرر الجريدة أنه تألفت جماعات خير فى عدة أقطار خصوصا البلاد الهندية والمصرية لهذه الأغراض .

وقد صدرت جريدة العروة الوثقى بناء على رغبة المركز الرئيسى لهذه الجمعية فى إنشائها ، وتقرر أن تصدر بأشرف لسان عند المسلمين وهو اللسان العربى ، وأن تكون فى مدينة حرة كباريس ليتمكنوا من بث آرائهم وتوصيل أصواتهم إلى كل الأقطار ، كما قرروا أن ينشىء الجريدة مؤسس الجمعية السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى ، بحيث تتبع مشربهم وتذهب مذهبهم ، فلبى رغبتهم بل أدى حقاً واجباً عليه لدينه ووطنه . وكاف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها فكان ما حمل الأول على الإجابة حمل الثانى على الامتثال .

وقبل أن نتحدث عن ظروف إصدار الجريدة ، يحسن أن نعرف مبادىء الجمعية التى فقد قانونها الأساسى أو ظل مخطوطاً لم يطبع عند زعمائها .

وتعليمات جمعية العروة الوثقى هى :

١ — ينعقد الاجتماع بثلاثة يقسمون اليمين المعهود الذى كتبه الشيخ محمد عبده ودستور نصه الكامل سنذكره فيما بعد .

٢ — مذاكرة المجتمعين عند الالتئام المعتاد تكون فى أمور التذكير بآيات الله — النظر فى حالة الإسلام عند بدئه وما كان عليه النبى وخلفاؤه فقط — البحث فى السبب الذى امتدت به سطوة الإسلام — كيف انقلب الحال وآل إلى ما نراه ؟

٣ — يلاحظ كل باحث أن ذاته هى موضوع البحث فيطلب العلة من نفسه قبل أن يطلبها فى غيره ، ويقارن بين حاله وحال السلف بوجه الدقة والإنصاف .

٤ — مدارسة أحكام الجهاد وحقوق المسلم وما هو مكلف به فى معاملة غيره وما يفرض عليه إذا زحف الأعداء لخضد شوكة الاسلام .

٥ — النظر فى حال المسلمين لهذا الوقت أخذاً من أقوالهم وأعمالهم للوقوف على أحساسهم الدينى ومقدار عقيدتهم ليعلم الداء ويعالج بالدواء اللائق به .

٦ — كتابة كل فكر وتدوينه مفصلا مع ما تستقر عليه الآراء .

٧ — العمل فى الدواء بالقول (وفيه الكتابة والتأليف) وبذل المال فى مساعدة من يقول بنصر الدين وحمل السلاح للمقاتلة عند الإمكان .

٨ — كل واحد من أهل العقد مكلف بالعمل وإعداد أسبابه وما لا يتم إلا به ، وبدعوة الناس إلى عقده والارتباط به مع الاحتراس التام من كل ما يفيد أن هناك عقداً ، والثقة بمزيد الانضمام إنما تتحقق عند اتفاق اراء أهل العقد عليه .

٩ — يكون معظم الاهتمام بالصالحين الأمر من ذوى المكانة على اختلاف طبقاتهم من علماء وأمراء ورؤساء عشائر وغيرهم . وفريضة كل منهم أن يعمل للإسلام فيما خوله الله .

١٠ — فى كل حالة يراعى تمكين الفكر وتأسيس الارتباط حتى يكون عند كل واحد أن مصلحة الكل بمنزلة مصلحة الشخص أو أعلى ، ولا يقبل قول من قائل حتى يكون عمله أزيد من قوله أو مساوياً . العمل بذل المال والروح ، والأول أقرب الدليلين .

١١ — على أهل العقد أن يرسلوا رسلا إلى نواحى الوطن الحالين به وإلى المواطن المستعدة من غيره متى أمكنهم ذلك .

١٢ — لا يكون الشخص رسولا حتى يكون الإيمان ملكة راسخة فيه ويكون على قدرة كاملة فى تصريف القول وتوفيق النصح ، فيكون حكيما فى عمله لا يحتاج لوصية من غيره ، ولا لقيم يلاحظ عمله .

١٣ — يسمح للعقد أن يبعث رسلا على أنهم وعاظ يعملون المعروف من الدين ويؤيدون منطوق القرآن ، وعلى العقد أن يرسم لهم طريق النصيحة بدون أن يعرفوا أن هناك عقداً .

١٤ — على الرسول إن كان من أهل العقد أن يكاشف عقده بما يحس به من انفعالات الناس ، وما يأخذ قوله من قلوب السامعين لدعوته . وما أثر تعليم الوعاظ المبعوثين من طرف العقد .

١٥ — من استحق باستعداده الدخول فى العقد فعليه أن يقدم رسماً مالياً أقله مائة فرنك وأوسطه مائتان وأكثره ثلاثمائة ، ولا يستثنى من ذلك إلا عالم أو معتقد عند الناس لا يستطيع أداء المال على شريطة أن يبذل العالم وسعه فى تبيين الحق وبثه ، والمعتقد جهده فى حمل معتقديه على العمل فى مقاصد العقد ، فإن استطاع هذان الصنفان تأدية العقد فهم أولى الناس بالدعوة .

١٦ — يجتمع أهل العقد فى كل أسبوع مرتين المذاكرة فيما سبق بيانه .

١٧ — يجب على كل واحد أن يؤدى فى آخر كل جلسة مقداراً من النقد على حسب استطاعته قليلا أو كثيراً يدور على الحاضرون من أصغرهم سناً بصندوق صغير له فوهة ضيقة يضع فيها كل واحد ما تيسر خفية حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر . لا يستثنى من ذلك أحد ويسمى هذا الصندوق صندوق التبرع .

١٨ — يحفظ النقد المجتمع من الرسوم الابتدائية والتبرع عند من ينتخبه العقد أميناً .

١٩ — يودع فى ظرف تكتب عليه هذه العبارة : هذا مال حق التصرف فيه لعقد الإخلاص تحت رئاسة فلان (يذكر اسم الرئيس) .

٢٠ — يستعمل هذا المال فى النفقة على محل الاجتماع ولوازمه . وفى سبيل نشر المشرب وإرسال الرسل الداعين إلى الحق ، وفى إغاثة المقصرين مما ترجى منهم فائدة لمقصد الجمعية ، وبما يفضل عن ذلك فالنظر فيه للجمعية العليا (جمعية العروة الوثقى) إما مباشرة أو على يد أحد نوابها .

٢١ — يكون للعقد أربعة دفاتر (أحدها) لحصر أسماء رجاله (ثانيها) لأسماء رسله (ثالثها) لحصر النقد المجتمع (رابعها) لإحصاء النفقات .

٢٢ — إذا توفر فى الصندوق مبلغ من النقد وافر وأمكن تنميته على وجه شرعى مأمون الخسارة فعلى أهل العقد أن يدبروا أمر نموه .

٢٣ — على القائم بضبط الحساب فى الإيراد والصرف أن ينهج الطريقة المعهودة فى مركز العقد أن يضعوا لها نظاماً حسب المعروف فى بلادهم .

٢٤ — لا يصرف شىء إلا بقرار من أهل العقد يتفق عليه جميعهم أو أكثرهم .

٢٥ — إذا قضت الحوادث بعمل عاجل يقرب من مقصد الجمعية وخيف فوات الفرصة بفوات الوقت واحتيج إلى نفقة تقتضى زيادة عن الموجود وجب على أهل العقد أن يبذلوا ما فى وسعهم لإتمام العمل .

٢٦ — لا يباح لأحد من رجال العقد أن يذكر شيئاً من أحوالهم ومقاصدهم ومذاكراتهم عند من ليس من مقصده فى شىء ، بل لا يباح التصريح باسم العقد وأهله إلا لمن حصلت الثقة بحالة عند رجال العقد .

٢٧ — على رجال العقد أن يحمى بعضهم بعضاً ويعين كل منهم باقيهم بقدر الاستطاعة .

٢٨ — الاستطاعة لا تفسر بالأهواء وإنما هى المعروفة عند المخلصين التى لا يعدمها الإنسان ما دام حياً قادراً على الحركة .

٢٩ — إذا رأى أهل العقد أن يزيدوا شيئاً فيما وصلهم من قانون الجمعية حسب حالة بلادهم فعليهم مخابرة من يتولى مواصلتهم فيما يريدون .

٣٠ — القانون الداخلى للاجتماع يضعه أهل العقد .

أما القسم الذى يقسمه أعضاؤها فهذا هو نصه كما كتبه الشيخ محمد عبده :

« أقسم بالله العالم بالكلى والجزئى ، والجلى والخفى ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت ، لأحكمن كتاب الله تعالى فى أعمالى وأخلاقى بلا تأويل ولا تضليل .

ولأجيبن داعيه فيما دعا إليه ولا أتقاعد عن تلبيته فى أمر ولا فى نهى ، لأدعون لنصرته ، ولأقومن بها ما دمت حياً ، لا أفضل على الفوز بها مالا ولا ولداً .

أقسم بالله مالك روحى ، ومالى ، القابض على ناصيتى ، المصرف لإحساسى ووجدانى ، الناصر لمن نصره ، الخاذل لمن خذله ، لأبذلن مافى وسعى لإحياء الأخوة الإسلامية ، ولأنزلنها منزلة الأبوة والبنوة الصحيحتين ، ولأعرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى . وانتظم فى عقد من عقودها ، ولأراعينها فى غيرهم من المسلمين ، إلا أن يصدر عن أحد ما يضر بشركة الإسلام ، فإنى أبذل جهدى فى إبطال عمله المضر بالدين ، وآخذ على نفس فى أثره مثل ما آخذ عليها فى المدافعة عن شخصى .

أقسم بهيبة الله وجبروته الأعلى أن لا أقدم إلا ما قدمه الدين ، ولا أؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا أسعى قدماً واحدة أتوهم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً كان أو كلياً ، وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين فى شىء يتفق رأى أكثرهم عليه ، وعلى عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الإسلام والمسلمين عقلا وقدرة بكل وجه أعرفه ، وما جهلته أطلب علمه من العارفين لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر ما يسعه إمكانى الوجودى ، وأسأل الله نجاح العمل ، وتقريب الأمل ، وتأييد القائم بأمره والناشر لواء دينه ، آمين » .

وترتبط ظروف إصدار (العروة الوثق) بالتقاء السيد جمال الدين بالشيخ محمد عبده ومن المعروف أن الشيخ محمد عبده اتهم بعد سقوط الثورة العرابية بالاشتراك مع الثوار وحكم عليه بعد السجن ثلاثة أشهر وأيام. وبالنفى من مصر لمدة ثلاثة أعوام . وكان ذلك فى ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ (٢٤ ديسمبر سنة١٨٨٢)؛ وسافر الأستاذ الإمام إلى سورية ثم أقام فى بيروت . حتى سافر إلى أوروبا ، وكان قد سبقه إليها السيد جمال الدين .

وأثناء قيام الثورة العرابية فى مصر أرغم السيد جمال الدين على الإقامة فى كلكتا ، وبعد انتهاء الثورة خرج الأفغانى من الهند متوجها إلى أوروبا . ووصل إلى ميناء بور سعيد ومن هناك كتب فى ٢٣ سبتمبر ١٨٨٣ خطاباً إلى الشيخ محمد عبده أخبره فيه أنه متوجه إلى لندن ، وطلب منه إرسال الرد إلى إدارة جريدة (الشرق والغرب) أو إلى (مستر بلنت) صديق العرابيين الشهير، وكان محمد عبده فى ذلك الوقت فى سورية .

ولم يعلم مؤرخو الأفغانى ومحمد عبده ما دار بينهما من مكاتبات بعد هذه الرسالة ، ولا بعد وصول السيد جمال الدين إلى لندن ، ولا تاريخ سفر الأستاذ الإمام للقاء أستاذه على وجه التحديد .

وقد ذكر تشارلز آدمز أن جمال الدين كان فى باريس فى أوائل سنة ١٨٨٣ ، وأنه كتب لمحمد عبده يدعوه للعمل معه ، فخرج من بيروت فى أوائل سنة ١٨٨٤ ولحق بأستاذه فى باريس حيث بقى نحو عشرة شهور ذهب خلالها مرة أو مرتين إلى بلاد الإنجليز .

وكانت (العروة الوثق) أخطر الصحف شأناً فى تلك الفترة من فترات التاريخ ، وحرمت الحكومة البريطانية دخولها إلى الهند ومصر والسودان .

وقد بلغ من أهمية هذه الصحيفة أن كثيرين من مريدى الشيخ جمال الدين كانوا ينسخون أعدادها ، ومنهم الشيخ عبد القـــادر المغربى الذى نسخ جميع أعدادها ، وأتم نسخها سنة ١٣٠٧ هـ . كما أعاد الشيخ حسين محي الدين الحبال صاحب جريدة أبابيل فى بيروت طبعها جميعاً فى مجلد واحد عام ١٣٢٨ هـ .

وقد حدد يوم الخميس من كل أسبوع موعداً لصدورها . ولم يحدد لها ثمن، بل كتب فى صدرها أنه (قد عينت أجــــرة البريد خمسة فرنكات فى السنة لمن تسمح بها نفسه) .

فلم يكن لها اشتراكات ، ولا ثمن ، بل كانت ترسل لمن يطلبها فى جميع البلاد الشرقية .

وكان أثر هذه الصحيفة فى البلاد العربية خطيراً ، وخاصة فى مصر والشام . فكونت طبقة من مريدى الأفغانى نبغ منهم كثيرون من دعاة الاسلام ، واشتهر منهم فى الشام الشيخ محمد رشيد رضا ، والشيخ عبد القادر المغربى .

كتب الشيخ رشيد فى مقدمة كتاب صديقه الشيخ عبد القادر المغربى (الجزء الثانى من البينات) .

(وأكبر ما أثر فى أنفسنا وعقــــولنا وظهر أثره فى إنشائنا لفظاً ومعنى جريدة (العروة الوثقى) لحكيمى الشرق ومجددى نهضته العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية .

وجدت أعداداً منها فوجدتنى دخلت فى حياة جديدة ، وأطلعت صديقى المغربى على تلك الأعداد كدأبنا فى إطلاع كل منا الآخر على ما يستحسنه ، ويراه مفيداً . ثم طفقت أبحث عن بقية الأعداد ، واستنسخ ما أجده منها وينسخ هو أيضاً حتى كملت لنا . ورسخت آراء الحكيمين وأفكارهما أو مذهبهما الإصلاحى فى أنفسنا . وقد قال لنا مرة أستاذنا الشيخ حسين الجسر : إن بينكما جوامع كثيرة أخصها حب السيد جمال الدين الأفغانى واتباع أفكاره . فقلنا له : بل أخصها تتلمذنا لفضيلتكم وتلقينا عنكم) .

وقد سحرت (العروة الوثقى) شباب العرب حين صدورها ، وقال الشيخ المغربى : إنها مهدت بين ناشئة العرب مناهج فى الكتابة وأساليب الانشاء ما كانوا يعهدونها من قبل ، ونبهت إلى وجوب استعمال كلمات الفصحى والاستعانة بها على إيراد المعانى العصرية ومطالب الحياة الاجتماعية ، كما كانت العروة الوثقى مدرسة

سياسية شريفة علمت أبنـــاء الشرق أن الاستعمار هو علة العلل ، وأن مقاومته ومقاومة أعوانه هي طريق الحرية .

وقد شرح تشارلز آدمز أسباب نجاح العروة الوثقى بالرغم من قصر حياتها فقال « إنها كانت تبكى تأخر المسلمين وتدعوهم جميعاً إلى الاتحاد والتضافر تحت لواء دين واحد يظللهم جميعاً ، كى يدفعوا عنهم ظلم حكامهم ، وما يقع عليهم من مظالم الدول الأجنبية التى تخالفهم فى الدين ، ولكى يردوا إلى الإسلام المتحد المنصور ما كان له من سؤدد ومجد .

وأحسنت العروة الوثقى صوغ دعوتها لإثارة كافة المسلمين ، الذين آلمهم أن يروا أمم الاسلام وقد تفرق شملهم ، وانشقت عصاهم ، ودب فيهم دبيب التأخر والانحلال ، وأجادت فى التعبير عن دعوتها ، فى لغة فصيحة عزت عن النظير » .

وقد كان للعروة الوثقى أثر خطير فى السياسات العالمية فترجمت مقالاتها بعض الصحف الإنجليزية ، وردت على ما جاء فيها . وفى نفس الوقت منعت الحكومة الإنجليزية دخولها فى مصر والهند .

وفى القاهرة انعقد مجلس النظار (الوزراء) واهتم بالبحث فى شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية بأن تشتد فى منع هذه الجريدة عن الدخول إلى مصر ، ومراقبة جولانها فى البلاد . فصدر أمر وزارة الداخلية إلى إدارة عموم البوسطة (البريد) يلزمها بالدقة فى ذلك . كما صدرت الأوامر بأن كل من توجد عنده (العروة الوثقى) يغرم مبلغاً من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيها .

وحين صدر هذا القرار كتبت جريدة (العروة الوثقى) فى عددها التاسع تستنكر هذا القرار ،وقالت :إنها لا تعتقد أن أحداً من الوزراء له رأى اختيارى فى هذا ، ولا الخديوى نفسه يستطيع أن يحكم ، كما ذكرت أنها جريدة قامت بالدفاع عن المصريين والاستنجاد لهم ، ولهـا سعى بل كل السعى لخيبة آمال أعدائهم . وذكرت الرزايا التى أصيبت بها مصر من الاحتلال البريطانى .

وقد أدرك المعاصرون من العلماء والمفكرين حقيقة العروة الوثقى وأثرها فى العالم الاسلامى . فكان الشيخ حسين الجسر عالم سورية يقول :

« ما كان أحد يشك فى أن جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلاباً عظيما فى العالم الإسلامى لو طال عليها الزمان » .

وكانت الجريدة ترسل إلى سليمان الكيلانى نقيب السادة الأشراف فى بغداد وكان كلما جاء عدد منها يقول :

« يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذه الجريدة قبل أن يجىء العدد الذى بعد هذا » .

ومما يرويه الشيخ محمد رشيد رضا عن أثر العروة الوثقى أنها كانت تصل إلى الشام ، وكان بعض المنفيين بسبب الثورة العرابية يقيمون هناك ، ومنهم الشيخ محمد عبد الجواد القاياتى الذى كان يجمع حوله بعض المنفيين وبعض أبناء الشام ويضع الجريدة بين يديه تحت مصباح من مصابيح زيت البترول ، ويقرأها بصوت جهورى كأنه خطيب ، ويقف عند بعض الجمل ، ليعبر عما يخالجه من شعور .

كانت « العروة الوثقى » أخطر مرحله من مراحل الفكر الاسلامى المعاصر فقد وضع الأفغانى فى هذه الجريدة خلاصة تفكيره السياسى الذى بذر النهضة الاسلامية فى هذا العصر .

يقول الأستاذ (ه . ا . جب) أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن :

« إن داعية الحركة الأكبر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وهو السيد جمال الدين الأفغانى كان فى فضح الاستبداد والحكم الفاسد اللذين وجدهما سائدين فى الممالك الاسلامية المستقلة ولم يكونا أقل سيادة فى الامبراطورية العثمانية » .

ويقصد الأستاذ جب بالحركة فكرة الجامعة الاسلامية التى تبناها الأفغانى ودافع عنها باعتبارها محور الاصلاح السياسى والاجتماعى بعيداً عن فكرة تجميع الأقطار الإسلامية كلها تحت لواء دولة واحدة أو خلافة واحدة .

وذكر الأستاذ ج . كامبفاير بجامعة برلين أن جمال الدين أثر فى مصر تأثيراً كبيراً وغرس هو وتلميذه محمد عبده فى مصر بذوراً ثبتت فى الأرض أصولها ، وتؤتى الآن أكلها ، وتنتشر بذورها فيما حولها شيئاً فشيئاً .

وقد خرجت كل التيارات الفكرية دينية وسياسية واجتماعية من أفكار جمال الدين الأفغانى التى لخصها فى إعداد جريدته ويحسن أن نقول إن الإسلام ليس نظاماً للعقائد والعبادات فحسب . ولكنه مدنية كاملة ولذلك فإن دعوة الأفغانى ترتبط ارتباطاً حقيقياً بالدعوة الاسلامية بمفهومها الصحيح ، وهكذا استطاعت التأثير فى يقظة المسلمين .

وكانت العروة الوثقى من أهم وسائل الشيخ جمال الدين فى إيقاظ المسلمين رغم قلة إعدادها ، وتوقفها عن الصدور .

وكانت الموضوعات التى عالجتها العروة الوثقى أربعة هى : الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية ، والمسألة المصرية والمسألة السودانية .

الجامعة الإسلامية :

كان الغرض منها إرشاد المسلمين بالقرآن ونشأة الإسلام الأولى إلى وحدته وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين فى إقامته وتأسيس حكومته ، وسيرة السلف الصالحين فى هدايته ، وسيرة القواد الفاتحين فى تشييد صروح سيادته ، ومذاهب الأئمة المجتهدين أى طرقهم العلمية الاستقلالية فى تدوين شريعته ومناهج الحكماء فى تكوين حضارته ، وتوجيه جميع شعوبهم إلى استقلال بلادهم واتحادها وتعاونها على إحياء مجده ، بترك عصبيات المذاهب والجنسيات المتفرقة لكلمة أهله .

وأما ما قيل عن السيد جمال الدين من أنه يريد بالجامعة الاسلامية أن يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة ، فلم يظهر شىء منه فى العروة الوثقى ولا فى غيرها مما كان يرويه عنه الأستاذ الامام وهو أعلم الناس بمقاصده وأعماله ، بل عكس ذلك هو الصحيح فقد قال فى مقال (الوحدة الاسلامية) التى نشرت فى العدد التاسع من العروة الوثقى « لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع

شخصاً واحداً فإن هذا ربما كان عسيراً . ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، كل ذى ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فإن حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه إلا أن هذا بعد كونه أساساً لدينهم ، تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات » .

وتناول السيد موضوع الجنسية والديانة الإسلامية فى مقالات عديدة كتبها الشيخ محمد عبده فوضح عصبية الجنس ونعرته ومكانتها فى الأمم والحاجة إليها فى المجتمع ، وتجاوز الناس حد الحاجة فيها إلى الأنفة من سلطان المخالف فى الجنس وإن كان عادلا مصلحاً ، لأن فى قبول حكمة مهانة وذلا ، واستثنى من هذه الضرورة للعصبية ما تزول به فائدتها ، بوجود عصبية أعلى وأنفع وأعم وأشمل منها ، وهى العصبية الدينية ، ووصف سلطانها على النفس ، وأثرها فى الوجدان والحس ، وضرب لها مثلا عصبية الدين الإسلامى وبين حال المسلمين فيها .

« لأن الدين الإسلامى لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق إلى الحق ، وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى إلى عالم أعلى ، بل هى كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد ، وبيان الحقوق كلها وجزئيها ، وتحديد السلطة الوازعة التى تقوم بتنفيذ المشروعات وإقامة الحدود وتعيين شروطها ، حتى لا يكون القابض على زمامها إلا من أشد الناس خضوعاً لها ، ولن ينالها بوراثة ولا امتياز فى جنس أو قبيلة أو قوة بدنية ، أو ثروة مالية ، وإنما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ، ورضاء الأمة ، فيكون وازع المسلمين فى الحقيقة شريعتهم الالهية المقدسة التى لا تميز بين جنس وجنس ، واجتماع آراء الأمة ، وليس للوازع أدنى امتياز عليهم إلا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها » .

ثم إستدل على ما ذكر بما جاء فى الكتاب والسنة ، وذكر جريان المسلمين على ذلك فى القرون الخالية ، واستقامة أمورهم باستقامة الوازعين فيهم على ما ذكر واختلالها باختلاله . ومنه قوله :

« . . . وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره فى أبهته ورفاهية

معيشته وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد ، ورجعت الأجناس إلى تعصبها ، وقع الاختلاف ، وانقبضت سلطة ذلك الوازع » .

ثم إنتقل من هذه المقدمات إلى المقصد الأسمى ، وهو تأسيس حكومة إسلامية تكون مركز الجاذبية العامة للوحدة ، فقال :

« إن المسلمين اختصروا من بين سائر الأديان بالتأثر والأسف عندما يسمعون بانفصال بقعة إسلامية عن حكم إسلامى بدون التفات إلى جنسها وقبيلها، ولو أن حاكما صغيراً بين قوم مسلمين من أى جنس كان ، تبع الأوامر الإلهية وثابر على رعايتها ، وأخذ الدهماء بحدودها ، وضرب بسهمه مع المحكومين فى الخضوع لها ، وتجافى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة ، لأمكنه أن يحوز بسطة فى الملك وعظمة السلطان ، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن فى الأقطار المعمورة بأرباب هذا الدين ، ولا يتجشم فى ذلك أتعاباً ، ولا يحتاج إلى بذل النفقات ، ولا تكثير الجيوش ، ولا مظاهرة الدول العظيمة ، ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية ، ويستغنى عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الأصول الأولى من الديانة الإسلامية . ومن سيره هذا تنبعث القوة ، وتتجدد لوازم المنعة » .

ثم ختم المقالة ببيان ما يخالف ذلك فقال :

« إن بعضاً من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكامهم وخروجهم فى معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية ، فيلجئون للدخول تحت سلطة أجنبية ، على أن الندم يأخذ بأرواحهم عند أول خطوة يخطونها فى هذا الطريق ، فمثلهم مثل من يريد الفتك بنفسه حتى إذا أحس بالألم رجع واسترجع . وأن بعض ما يطرأ على الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق إنما يكون منشؤه قصور الوازعين وبعدهم عن الأصول القويمة التى بنيت عليها الديانة الاسلامية ، وانحرافهم عن مناهج أسلافهم الأقدمين ، فإن منابذة الأصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررها بالسلطة العليا .

« فإذا رجع الوازعون فى الاسلام إلى قواعد شرعهم وساروا سيرة الأولين

السابقين لم يمض إلا قليل من الزمان إلا وقد أتاهم الله بسطة فى الملك وألحقهم فى العزة بالراشدين من أئمة الدين »

وتناول جمال الدين الأفغانى موضوع « ماضى الأمة وحاضرها وعلاج »، عللها فى مقال افتتحه بالآية الكريمة (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ثم تحدث عن أحوال الأمة الإسلامية قائلا :

« أرأيت أمة من الأمم لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم إنشق عنها عماء العدم ، فإذا هى بحمية كل واحد منها كون بديع النظام ، قوى الأركان ، شديد البنيان، عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة الهمم ، تخمد فى ساحاتها عاصفات النوازل ، وتنحل بأيدى مدبريها عقد المشاكل ، نمت فيها أفنان العزة بعدما ثبتت أصولها ، ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والدانى إليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الكلمة، وكملت القوة ، فاستعلت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها . وأحست مشاعر سواها من الأمم بأن لا سعادة لها إلا بانتهاج منهجها ، وورود شريعتها ، وصارت وهى قليله العدد كثيرة الساحات ، كأنها للعالم روح مدبر .

« وبعد هذا كله وهى بناؤها ، وانتشر منظومها ، وتفرقت فيها الأهواء ، وانشقت العصا ، وتبدد ما كان مجتمعاً ، وانحل ما كان منعقداً . وانفصمت عرى التعاون ، وانقطعت روابط التعاضد ، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها ، ودار كل فى محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه ، لا يلمح فى ناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية » .

ثم قال :

« نعم رأيت كثيراً من الأمم لم تكن ثم كانت ، وارتفعت ثم انحطت ، وقويت ثم ضعفت ، وعزت ثم ذلت ، وصحت ثم مرضت ، ولكن ، أليس لكل علة دواء ؟ بلى وأسفاه ما أصعب الداء ، وما أعز الدواء ، وما أقل العارفين بطرق العلاج »

ثم طفق يسأل عن الدواء وطرق العلاج :

« كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها، وهى لم تفترق إلا لأن كلا عكف على شأنه ؟ أستغفر الله ، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالا به ، ولكنه صرف لشئون غيره وهو يظنها من شئون نفسه . .

« كيف تبعث الهمم بعد موتها ؟ وما ماتت إلا بعد ما سكنت زماناً غير قصير إلى ما ليس من معاليها . هل من السهل رد التائه إلى الصراط المستقيم، وهو يعتقد أن الفوز فى سلوك سواه ؟ خصوصاً بعد ما استدبر المقصد وفى كل خطوة يظن أنه على مقربة من الحظوة ؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق فى منامه ، المبتهج بأحلامه ، وفى أذنيه وقر ، وفى ملامسه خدر ؟ هل صيحة تفزع القلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أنحاؤها ، وتتنامى أطرافها، وتتباين عاداتها وطبائعها .

« هل من نبأة تجمع أهواءها المتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة ، بعد ما تراكم جهل وران غيم ، وخيل للعقول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعر ؟ أيم الله إنه لشىء عسير ، يعيا فى علاجه النطاسى ، ويحار فيه الحكيم البصير » .

ثم أخذ يبحث فى حقيقة الدواء ومرض الأمة والفرق بينه وبين معالجة مرض الأفراد الجسدى ويستعرض الآراء فى ذلك ، ومنها ذهاب بعض الناس إلى فائدة الجرائد ، وآخرين إلى الاعتماد على إنشاء المدارس على نحو ما فى أوروبا ويبحث فى كل منها من حيث الإمكان والاتفاق ومسالمة الزمان ووضع تلك العلوم الغربية فى مواضعها على الوجه الموصل إلى مقاصدها مع مراعاة استعداد الأمة وطبائعها .

رسم السيد جمال الدين سياسة جديدة للشرق كان الغرض منها إحياء جميع شعوبه وتعاونهم لدفع استعباد الغرب لهم ، واستقلال بلادهم بنفسها ، وعمرانها بأهلها ، ولما كان دين الإسلام هو الغالب فى ممالك الشرق الأدنى كبلاد الترك والفرس والأفغان والعرب وشطر أفريقية الشمالى كله ،وكان أعظم أسباب ضعف شعوبها التفرق والتعادى باختلاف المذاهب والأجناس المحظور فى دين الاسلام، وكان سبب هذا الاختلاف والتفرق الجهل بحقيقة الإسلام نفسه والابتداع فيه ، وكان السعى لتلافى ذلك فرضاً دينياً .

لذلك كان أهم ما اتجه إليه السيد جمال الدين تجديد الإسلام وإصلاح ما أفسدت فيه البدع والعصبيات المذهبية والجنسية بإحياء الرابطة الإسلامية الأولى التى عنوانها قوله تعالى : (إنما المؤمنون إخوة) كما تقدم بيانه فى أصول جمعية العروة الوثقى .

وكان من حكمته التى جرى عليها بالقول والعمل الجمع بين الرابطة الإسلامية والرابطة الوطنية فى البلاد التى تتعدد فيها الملل بحيث لا تجد الأقليات غير المسلمة أدنى امتعاض ولا شكوى من الإصلاح الإسلامى الذى جرى عليه كما كان شأنه وعمله فى مصر ، حتى أجمع أرباب الأقلام على تلقيبه بفيلسوف الشرق ، وانضم إليه فى حركته غير المسلمين من أمثال يعقوب صنوع وأديب إسحق وغيرهما .

ولما كانت صيحة الدعوة الإسلامية فى العروة الوثقى شديدة كالصاعقة فقد حاول بعض أعدائها النيل من أفكار الأفغانى ، ولذلك لخص فكرته فى مقال فى العدد السادس ، وضح فيه جوهر فكرته فيما يلى :

١ — تجهيل الذين يتفيهقون بذم التعصب والتهكم بهم .

٢ — بيان معنى التعصب فى اللغة وفى الاجتماع البشرى .

٣ — بيان كونه من الصفات والروابط البشرية النافعة التى لها وسط هو الكمال الذى لا يقوم أمر اجتماعى عام فى تكوين الأمة وحياتها بدونه — ولها طرفا إفراط وتفريط كلاهما نقص وضار ، فالإفراط فيه ما يحمل أصحابه على الدفاع عن الملتحمين معهم بلحمة العصبية بحق وبغير حق ، وعلى هضم حقوق غيرهم ؛ والتفريط هو إهمال ما تدعو إليه العصبية من التعاون والتناصر على حفظ حقوقهم والدفاع عنهم الذى يفضى إلى اضمحلال الأمة لعدوان غيرها عليها .

٤ — الرد على الذين يخصون التعصب الدينى بالمقت والذم من الإفرنج ومقلديهم ، وبيان عدم الفرق بينه وبين التعصب للجنس فى حقيقته وفائدته فى حالة الاعتدال ، وفى ضرره فى حالتى الإفراط والتفريط .

٥ — فى سيرة المسلمين وتاريخهم فى هذا التعصب وإثبات كونهم أدنى الأمم إلى الاعتدال والانصاف مع المخالفين لهم وشهادة التاريخ لهم بذلك .

٦ — عناية الافرنج الطامعين فى بلاد المسلمين ببث الدعاية لتنفيرهم من العصبية الدينية لعلمهم أنها لا تكون إلا بالعقيدة فهم يزينون لهم « هجر هذه الصلة المقدسة وفصم حبالها لينقضوا بذلك بناء الملة الإسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً » وقد تبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلا وتقليداً . فساعدهم على التنفير من العصبة الدينية بعد ما فقدوها ، ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيء لنفسه مسكناً سواه فاضطر الى الإقامة بالعراء معرضاً لفواعل الجو وما تصول به على حياته .

٧ — نصبت الدول الأوروبية الحبائل فى البلاد الإسلامية لاصطياد من يساعدها على سياستها ، ولم تعدم صيداً من الأمراء والمنتسبين إلى العلم والمدنية الجديدة ممن استعملتهم آلة فى بلوغ مقاصدها من بلادهم .

بل إن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم فى إيمانهم يزينون الكلام فى ذم التعصب الدينى ويرمون المتعصبين بالخشونة والبعد عن المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ، ويفسدون شأنهم ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المارقين .

٨ — بيان عصبية الإفرنج الدينية ومنها أن من قواعدهم الأساسية فى حكوماتهم السياسية الدفاع عن الدين والقائمين عليه ومساعدتهم على نجاح أعمالهم .

وأوصى السيد جمال الدين المسلمين بالاعتصام بالرابطة الدينية التى يجتمع فيها التركى والعربى والفارسى والهندى والمصرى والمغربى فتحفظ بها حياة الجميع الملية مع العدل ورعاية الرابطة الوطنية والتزام أوامر الله فى حفظ الذمم ومعرفة الحقوق لأربابها وحسن المعاملة فى المنافع الوطنية بينهم وبين جيرانهم من أرباب الأديان المختلفة الذين لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحهم ، وبمباراة الأمم فى القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم فى اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الإنسانية » .

. . ومن الموضوعات الهامة التى عالجتها (العروة الوثقى) (موضوع القضاء والقدر) .

ذلك أن الإفرنج والمتفرنجين يزعمون أن عقيدة القضاء والقدر من العقائد الضارة التى كانت أهم الأسباب لضعف المسلمين وتخلفهم ، لأنها تعطل المدارك والقوى وتجعل صاحبها ينتظر نيل كل مطالبه وحاجاته الشخصية والقومية من الله تعالى فيقعده ذلك عن علو الهمة فى العمل . والأمر بضد ذلك فإن هـذه العقيدة تعلى الهمة ، وتنفخ فى الأنفس روح الشجاعة ، وتصغر عندها العظائم ، وتهون عليها مصارعة الشدائد وإنما العقيدة التى لها ذلك الأثر الردىء عقيدة الجبر وهى بدعة حدثت فى الإسلام .

ويقول السيد الأفغانى فى ذلك :

« الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والأقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التى ترجف لها قلوب الأسود ، وتنشق منها مرائر النمور ، وهذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات واحتمال المكاره ومقارعة الأهوال ، ويحليها بحلى الجود والسخاء ، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح والتخلى عن نضرة الحياة ، كل ذلك فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة » .

« الذى يعتقد أن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيدالله يصرفها كيف يشاء ، كيف يرهب الموت فى الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته . والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الإلهية وأصول الاجتماعات البشرية » .

وذكر بعض آيات القرآن فى بعض الغزوات النبوية وقرن بهـــا وصف الفتوحات الإسلامية ثم قال :

« بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق ، وانقضت شهبها على الحيارى فى هبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل اعلاء كلمتهم ، لا يخشون فقراً ولا يخافون فاقة » .

« هذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون فى حجورهم إلى ساحات القتال فى أقصى بلاد العـــالم كأنما يسيرون إلى الحدائق

والرياض ، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أماناً من كل غادرة ، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة ، وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج إليه ، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول ، إلا بحمل السلاح ، ولا تأخذ النساء رهبة ، ولا تغشى الأولاد مهابة » .

« هذا الاعتقاد هو الذى ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الأكباد حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به فى قلوب أعدائهم ، فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيموا بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم ، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جحافلهم » .

وكان رجاء الأفغانى أن يعود المسلمون إلى ما كانوا عليها عند ما كانت تلك العقائد الإسلامية سليمة من مخالطة البدع لها ، وطروء الوهن والزلزال عليها ، واستدل على ذلك بازدياد أنصار جمعية العروة الوثقى يوما بعد يوم .

ومن أهم الموضوعات التى تناولها الفيلسوف الأفغانى بالبحث والتدقيق موضوع (الفضائل والرذائل وأثرهما فى الأفراد والأمة) ولخص آراءه فى مقال جعل عنوانه الآية الكريمة (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) وهو يصور للقارىء تأثير الأخلاق فى الأفراد ويجعلها مع المشاعر مثالا لتأثيرها فى الأمم ، وينتقل من الكلى إلى الجزئى فيشرح ما كان من تأثير الفضائل الاسلامية فى المسلمين ، وما نالوا بها من الملك والعظمة العملية ، وما آل إليه أمرهم بما طرأ على أخلاقهم ، ويصف العلاج له ، ومما ابتكره فى تشبيه مكانة الفضائل من الأمة قوله بعد ذكر حياة الإنسان الفردية والنوعية والقومية وتشبيه الفضائل فى الأمة بقوى الحياة فى الفرد المخصصة لكل حاسة وجارحة بوظيفة تؤديها لحياة البنية كلها :

« وإن شئت قلت : الفضائل فى عالم الإنسان كالجاذبية فى العالم الكبير ، فكما أن الجاذبية العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، والتوازن فى الجاذبية ثبت كل كوكب فى مركزه وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب الآخر ، وانتظم بها سيره بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله فى وجود الأكوان وبقائها

وكذلك شأن الفضائل فى الاجتماع الانسانى ، بها يحفظ الله الوجود الشخصى إلى الأجل المحدود ، ويثبت البقاء النوعى إلى أن يأتى أمر الله » .

ومما قاله فى سوء تأثير الرذائل فى إفساد الأمة بعد بيان سوء تأثيرها فى إفساد الأفراد قوله :

« هذه الرذائل إذا فشت فى أمة نقضت بناءها ، ونثرت أعضاءها ، وبددتها شذر مذر . واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعى أن تسطو على هذه الأمة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها فى الأعمال بالقسر فإن حاجاتهم فى المعيشة طالبة للاجتماع ، وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف (أى الرذائل التى ذكرها ومنها الجبن والمهانة والفحش والبذاءة) ولابد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع إلى حد الضرورة .

هذه صفات إذا رسخت فى نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، تراهم أذلة للأجنبى عنهم ، يمهدون السبيل للغالبين إلى النكاية بهم ، ويمكنون مخالب المغتالين من أحشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحاً ، وكل جليل حقيراً .

وحينما تناول السيد الأفغانى موضوع (الوحدة الإسلامية) لخص كل آرائه فى مقال عنوانه آية كريمة أيضاً هى : (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) وقد وصف ما بلغته دولة الإسلام وفتوحه فى نشأته الأولى وبيان حدودها فى خريطة الأرض ، وما كان فيها من العمران والعلوم والعلماء ، وما كان لها من الجيوش والأساطيل ، وبعد ذلك وصف انحلالهم فى هذا العصر على كثرة عددهم ، وبين سبب هذا الهبوط والسقوط والوهن ، ووصف علاجه .

ومما قاله فى هذا :

« نعم يوجد للتقصير فى إنماء العلوم والضعف فى القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك من المسلمين ، لأنا بينا أن لا جنسية للمسلمين إلا فى دينهم » .

وبين أسباب التخاذل بين المسلمين مما أدى تدهور أحوالهم ، ثم قال :

« هذا الذى أباد مسلمى الأندلس وهدم أركان السلطنة التيمورية فى الهند. ومحا أطلالها ، وعلى رسومها شيد الإنجليز ملكهم بتلك الديار . هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالممالك الإسلامية ، ودهورتها أمانيهم الكاذبة فى مهاوى الضعف والوهن ، قبح ما صنعوا وبئس ما كانوا يعملون ، أولئك اللاهون بلذاتهم ، العاكفون على شهواتهم ، هم الذين بددوا شمل الملة ، وأضاعوا شأنها ، وأوقفوا سير العلوم فيها ، وأوجبوا التوقف فى الأعمال النافعة من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدى بنيها .

« ألا قاتل الله الحرص على الدنايا والتهالك على الخسائس ، ما أشد ضررهما وما أسوأ أثرهما ، نبذوا كلام الله خلف ظهورهم ، وجحدوا فرضاً من أعظم فروضه ، فاختلفوا والعدو على أبوابهم . وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا فى الكلمة الجامعة حتى يدفعوا غارة الأباعد عنهم . ماذا أفادتهم المغالاة فى الطمع والمنافسة فى السفاسف ؟ أفادتهم حسرة دائمة فى الحياة ، وشقاء أبدياً بعد الممات وسوء ذكر لا تمحوه الأيام .

« أما وعزة الحق وسر العدل ، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم ، لتعارفت أرواحهم ، وائتلفت آحادهم ، ولكن وا أسفا تخللهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة فى لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهى . هؤلاء هم الذين حولوا أوجه المسلمين عن ما ولاهم الله ، وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم ، حتى تناكرت الوجوه وتباينت الرغائب » .

وعندما وقف السيد عند الحديث الشريف « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » تكلم عن الوحدة والسيادة ، والطريق الموصل إليهما ، وما يرجى من علماء المسلمين من السير بهم فى هذا الطريق ، وأثبت أن هذين الأمرين هما السببان لنشأة الدول ، وبقاء الأمم ، وأنهما يحصلان لأسباب ثلاثة هى : الضرورة ، أو الدين أو التربية والتعليم ، وأثبت أن الوحدة والسيادة ركنان من أركان السياسة والاجتماع للملة الإسلامية فرضهما الدين ، وجعل العقاب على إهمال هذه الفريضة خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

اتجاهات العروة الوثقى

بعد هذا العرض لاتجاهات العروة التي سجلها الإمام محمد عبده بقلمه ، مستمداً أفكارها من السيد جمال الدين ، يحسن أن نوضح هذه الاتجاهات السياسية ، فقد مضت فترة طويلة منذ كتابتها تغيرت خلالها سياسات العالم ، وتبدلت حدود دوله ، وسقطت دولة الخلافة التي كان الأفغاني شديد التعلق بها أملا في استخدامها لخدمة الإسلام فخاب سعيه ، ولقى حتفه على أيدى الذين حاول رفعهم وتقوية شوكتهم .

وأهم إتجاهات العروة الوثقى تتركز فى اتجاهين رئيسيين :

أولهما : الدعوة إلى الوحدة الإسلامية .

وثانيهما : المسألة المصرية والدعوة إلى مقاومة الاستعمار البريطانى لها ، وما يرتبط بذلك من مساندة ثورة المهدى فى السودان .

ونحن لا نستطيع أن نفصل الأفغانى عن أحداث عصره ، فهو كرجل سياسى مرتبط بهذه الأحداث متفاعل معها ، يؤثر فيها ويتأثر فى أفكاره بصوابها وأخطائها . ولذلك فإننا لا نستطيع أن نحكم بصواب كل آراء الأفغانى مجردة عن ظروف عصره ، ولا نستطيع أيضاً أن نحاسبه على آرائه بعيداً عن تلك الظروف التى عاصرها وعاش فيها وتفاعل معها .

وهناك من المؤرخين من يناقش مشكلات الماضى بآراء عصره ، ويصدر الأحكام على أفكار العظماء واتجاهاتهم طبقاً لمذاهب واتجاهات سياسية استحدثت بعد وفاة هؤلاء العظماء بسنوات طويلة . وقد يكون لهؤلاء العظماء فضل السبق فى توجيه النظر إلى الأفكار الجديدة تطلعاً منهم إلى المستقبل ، فيأتى باحث ويحاسبهم على أساس ما ظهر من أفكار جديدة كان لهم فضل استحداثها أو وضع دعائمها .

ومن الخطأ مناقشة الآراء بهذه الطريقة التى تحاول فرض أفكار العصور السالفة على أفكار العصر الحاضر ، لأن إصدار الأحكام سيؤدى إلى الخطأ حتما ما دام قد بنى على الخطأ .

وعلى أساس هذه الفكرة يجب أن نناقش آراء جمال الدين الأفغانى السياسية ، حتى لا نقع فى خطأ إصدار أحكام عامة على تلك الآراء من واقع الحياة السياسية التى نعيش فيها اليوم .

وليس هناك شك فى أن الشكل السياسى دائم التغير والتبديل ، ولكن العبرة فى المناقشة ترتبط بالمبادىء التى يعتنقها المفكر السياسى ، لأن الأشكال السياسية ليست إلا وسائل يستعملها المفكر السياسى للوصول إلى أهدافه .

وقد اشتغل جمال الدين بالسياسة حين أصدر العروة الوثقى على أساسين :

أولا : أفكاره العامة فى الحرية ومقاومة الاستبداد والاستعمار .

ثانياً : الخريطة السياسية للوطن الإسلامى الذى صرف جهده كله من أجل تحريره من الاستعمار والاستبداد ، داخل إطار الخريطة الساسية للعالم كله التى ظهرت فوقها موازين القوى السياسية فى عصره .

وقد عالج الأفغانى موضوع الوحدة الإسلامية أو الجامعة الإسلامية بمفهوم فكرى واقعى واضح ، فلم يقل إنه يريد للمسلمين دولة واحدة ، ولكنه قال بالنص الحرفى :

— « أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدينية ، وكل ذى ملك يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع » .

وقد تحاول بعض القوى الرجعية استغلال آراء الأفغانى فى الدعوة إلى الوحدة الإسلامية استغلالا سيئاً لمصالح هذه القوى ، يبعد بالفكرة عن واقعها ، ويبعد بالدعوة عن جوهرها ، ولذلك يحسن أن نبين حقيقة دعوة الأفغانى للوحدة الإسلامية ، وهو أول من هتك أستار المستغلين للإسلام فى تفريق كلمة المسلمين ، وفتح أبواب بلادهم للمستعمرين .

وتقوم دعوة الأفغانى أساساً كما بين فى مقال عن (الوحدة الإسلامية) على ما ورد فى القرآن الكريم من الآية الكريمة (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) . وقال إنه لا جنسية للمسلمين إلا فى دولتهم ، وإن تعدد

دولهم كتعدد الرؤساء فى قبيلة واحدة ، وإن الصراع بين هذه الدول أشبه بالمنازعات الداخلية التى تؤدى إلى التفرقة ، فيبعد المسلمون عن التقدم العلمى والصناعى . وتنشأ فى ديارهم بواعث الفاقة والاحتياج وينتج عن ذلك الضعف والخلل ، فتتفرق الكلمة ويتدخل الأجانب فى ديار الإسلام .

وضرب مثلا لذلك ما حدث للسلمين فى الأندلس ، ثم ما حدث لهم فى الهند مما مكن الإنجليز من تأسيس مملكتهم فيها . حتى تحررت الهند أخيراً وأنشأت دولة باكستان الإسلامية بعد صراع عنيف .

فأساس الوحدة عنده ليس هو معاهدات ووثائق أو تفاهم بين ملوك وحكام، ولكنه أعظم من ذلك ، لأنه جعل للدول الإسلامية جنسية واحدة تقف أمام الأجنبي الدخيل .

ونظرية الوحدة الإسلامية بهذا المفهوم قريبة من نظرية الروابط التى تصطنعها بعض الدول للحفاظ على كيانها مع دول أخرى مع فارق هو أنه لا سيادة لدولة إسلامية على دولة أخرى ، ولكن السيادة للقرآن الذى اعتبره الأفغانى سلطان الجميع .

فرابطة الشعوب البريطانية أو الفرنسية أو الأمريكية ، روابط قامت لاستغلال الشعوب . وترتبط بنوع من الرباط يجمعها على مائدة واحدة ، قد تكون مصالح مشتركة قبل أن تكون رابطة حياة واحدة فيها من المصالح المشتركة قدر كبير ، ولكنها تجتمع على مصلحة عليا هى البقاء والوجود ، ولذلك ضرب الشيخ مثلا بالاندلس التى أبيد منها المسلمون ، ومحى اثرهم بسبب فقدان الوحدة الإسلامية .

وداخل نطاق هذه الأفكار عن الوحدة الإسلامية ، وقف جمال الدين عند نقطتين هامتين :

أولا : استبداد حكام المسلمين بالرعية .

ثانياً : تدخل الأجانب فى بلاد المسلمين .

ومن ناحية الحكام وضح الأفغانى النظرية الإسلامية التى تقول : إن القابض على زمام السلطة يجب أن يكون من أشد الناس خضوعاً لمبادىء الإسلام ذاته ، لا ينالها لوراثة ولا بامتياز فى جنس أو قبيلة أو قوة بدنية أو ثروة مالية ، وإنما ينالها بالوقوف على أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ، ورضاء الأمة .

ويؤدى ذلك حتما إلى منع استبداد الحكام الذين كانوا فى الغالب يرثون السلطة .

وذكر الأفغانى أن جور الحكام من أشد المصائب هولا ، ذلك أن بعض المسلمين يعز عليهم الصبر لجور حكامهم وخروجهم فى معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية ، فيلتجئون للدخول تحت سلطة أجنبية .

ومعنى ذلك أن استبداد الحكام من أسباب الاستعمار ، وأنه لابد أولا من تحرير ديار الأسلام من جور الحكام ، وإقامة نظم الحكم فيها على أساس العدل ورضاء الأمة .

والنقطة الثانية : وهى تدخل الأجانب فى بلاد المسلمين واستعمارها ، نتيجة لعوامل كثيرة منها ما ذكره الأفغانى من جور الحكام واستبدادهم ولجوء تلك البلاد إلى حكم الأجانب فراراً من ظلم حكامها ، ومنها ارتماء هؤلاء الحكام تحت أقدام المستعمرين حفظاً لسلطتهم الموهومة .ومنها ظهور طائفة من المتعلمين المتفرنجين الذين يلقنهم الأجنبى تعاليمه ويجعل منهم المستعمر بطانة له ومواضع لثقته ، ويعدون غلبة الأجنبى على بلادهم مباركة عليهم ، كما وصفهم السيد جمال الدين .

وإذا زال هذان السببان بدأت الخطوة الأولى للتفكير السليم الذى يدعو إلى إقامة المجتمع السليم الذى يحدث فيه الترابط الوثيق بين المسلمين وغير المسلمين فى الأوطان الإسلامية ، ولا يحدث فيه التمييز بين مسلم وغير مسلم تطبيقاً لمبادىء الإسلام .

وقد عرف جمال الدين أن الاستعمار استخلص نوعاً من الفكر الإسلامى يخدم أغراضه ، وحاول أن يلبس الحق بالباطل للسيطرة على بلاد المسلمين باسم الإسلام ، ولذلك اتخذ من العروة الوثقى منبراً لفضح الاستعمار وأعوانه .

وكانت مقالات العروة الوثقى عن الاحتلال البريطانى لمصر أساساً لمرحلة فكرية من مراحل الصراع ضد الاحتلال داخل اتجاهين :

أولا : محاولة ربط المسألة المصرية بالخلافة الإسلامية فى الآستانة ، أملا فى أن تستطيع دولة الخلافة مساندة مصر فى مقاومة الاحتلال مع استعانتها فى ذلك بأعداء بريطانيا فى ذلك الوقت وعلى رأسهم فرنسا ، وقد ظهر أثر ذلك جلياً فى دعوة مصطفى كامل فيما بعد حين اتجه إلى دولة الخلافة لتخليص مصر من الاحتلال البريطانى مستعيناً بفرنسا .

ثانيا : دافع عن مبدأ (مصر المصريين) فطالب بتسليم الحكومة المصرية إلى أولى العزم من المصريين ، وطالب المصريين بمعاهدة الدولة العثمانية والاتحاد معها على تخليص بلادهم وتحقيق ما يقال من أن (مصر المصريين) ، وظهر أثر ذلك دعوة لطفى السيد التى رفعت شعار (مصر المصريين) وكانت هذه الدعوة مسبوقة بما حدث فى الثورة العرابية التى كان محمد عبده مفكرها وفيلسوفها ، فقد قامت على أساس هذه الدعوة أيضاً .

وكان اهتمام الشيخ جمال الدين بمصر راجعاً إلى أسباب عامة ترتبط بكيان العالم الإسلامى كله باعتبار مصر قلب هذا العالم ، كما كان يرجع إلى أسباب خاصة هى أنه أقام بمصر أعز أيامه ، وبذر أعظم بذور أفكاره ، واتخذ من القاهرة المركز المحرك للفكر الإسلامى الجديد فى هذا العصر ، وهو يقول عن مصر بعد احتلالها :

« إن الفجيعة بمصر حركت أشجاناً كانت كامنة ، وجددت أحزاناً لم تكن فى الحسبان » .

ولكن جمال الدين لم يترك بلاد الإسلام الأخرى ، بل إنه أدخلها فى نطاق كفاحه من أجل تحرير المسلمين كافة . فهو يقف ضد الاستعمار فى كل مكان ، ويشهر فى وجهه سيف الإسلام .

ومن الميادين الأساسية عنده : أن الإسلام يحتم على معتنقيه أن لا يدينوا لسلطة من يخالفهم ، وأن الركن الأعظم لدينهم هو طرح ولاية الأجنبى عنهم عنهم ، وكشفها عن ديارهم .

ورغم مضى فترة طويلة على كتابة مقالات العروة الوثقى ، فإنها ستظل دائما قدوة فى العمل السياسى ، وهى تدل على قدرة خارقة فى فهم سياسات العالم وتتبع اتجاهاتها ومساربها .

وأفكار جمال الدين من الناحية الإسلامية تعتبر قواعد للفكر الإسلامى المعاصر ، وهى تتناول مشكلات الإسلام فى هذا العصر ، وتعالجها علاجاً سليما مستنداً إلى القرآن .

لقد استطاع جمال الدين كشف القناع عن الخطة الاستعمارية التى حاولها الإنجليز فى الهند (وكان بها ٥٠ مليون مسلم) لاستخدام ما سموه بالتقدمية فى تحطيم الأفكار الإسلامية الصحيحة . واتخذوا من أحد المسلمين وسيلة لتحقيق أغراضهم ، كما يتخذ الاستعمار دائما مطاياه من المسلمين لتحقيق أغراضه ، وكان هذا الشخص هو (أحمد خان بها دور) الذى حاول بذر مبادىء الطبيعيين فى الهند ،مما تناوله السيد جمال الدين فى رسالة (إبطال مذهب الدهريين) التى سنتحدث عنها فى الفصل التالى .

وساعد الإنجليز هذا الرجل على إنشاء جامعة (عليكرة) وسموها مدرسة المحمديين أو (الكلية الإنجليزية الشرقية المحمدية) وقد افتتحت فى مايو ١٨٧٥ ، وتحولت عام ١٩٤٨ بعد تقسيم الهند إلى (الجامعة الإسلامية) .

وتبع ذلك ظهور مذهب (القاديانية) الذى تزعمه رجل اسمه (ميرزا غلام أحمد) ادعى أنه المهدى ، وهذه الحركة وليدة السياسة الإنجليزية كما وصفها الأستاذ أبو الحسن الندوى أحد كبار علماء المسلمين فى الهند .

وإذا كان الافغانى قد أدرك اتجاهات الاستعمار ومخططاته ، فإننا اليوم نستطيع تفسير هذا المخطط الاستعمارى بالنسبة للإسلام ، فيما يظهر من محاولات جديدة داخل نطاق العالم الإسلامى .

لقد ظهرت أيدى المستعمرين فيما كتب عن (الإسلام والقومية) على وجه الخصوص ، فقد ادعى بعض من يتسمون بأسماء إسلامية أن الإسلام يعارض

أفكار القومية أساساً . ويعارض قيام القومية العربية ، وذهب بعضهم إلى أن القومية العربية هى قومية جاهلية حطمها الإسلام .

ومن الواضح أن الإسلام لا يمكن أن يعارض القوميات ، بل إنه يؤكد وجودها ويدعمها . ولكنه لا يجعل لقوم فضلا على قوم مع إقراره بشرف العرب حتى نزل القرآن بلسانهم على رجل منهم .

ولكن الاستعمار تزعجه القومية العربية فيحاول استخدام الإسلام لتحطيمها ، ولو أننا رجعنا إلى آراء الفيلسوف الأفغانى لوجدناها متطابقة مع ما يدعو إليه المسلمون المخلصون اليوم لأنها مستمدة من القرآن ، ولوجدنا فى أفكاره ما يضىء لنا الطريق فى فهم المخطط الاستعمارى الذى يحاول خلق نوع من الفكر الإسلامى يحاول تحطيم الإسلام نفسه فى محاولة إنكار القومية العربية ومحاولة تشويه حقيقتها ، مع أن هذه القومية من أهم ركائز الإسلام ودعائمه فى هذا العصر، وهى تستند أساساً إلى مبادىء الإسلام « وتستمد قوتها من القرآن باعتباره كتاب العربية الأكبر » .

الفيلسوف السياسى

كانت العروة الوثقى تعبيراً عن اتجاهات فكرية للشيخ جمال الدين أملاها على تلميذه محمد عبده ، وكانت فى معظم مقالاتها تهاجم الاستعمار ، وتوضح طريق الخلاص ، وقد وضحنا فى الفصل السابق حقيقة العروة الوثقى كجمعية سياسية سرية ، وكجريدة علنية تدافع عن مبادىء محددة المعالم .

ولكن جريدة العروة الوثقى لا توضح شخصية الفيلسوف ، لأنها تعبير عن عمل سياسى ظهرت فيه شخصية الكاتب السياسى أو الصحفى جمال الدين الأفغانى ، وكل ما فى الجريدة يعكس شخصية صحفى صاحب عقيدة أو كاتب سياسى صاحب مبدأ .

كما أن جمعية العروة الوثقى السرية أو غيرها من الجمعيات التى أنشأها جمال الدين لا تعبر أيضاً عن شخصية فيلسوف ، بل هى تعبير عن انفعال سياسى فى موقف معين أملته ضرورة طارئة لجمعية (الماسون) التى أنشأها فى مصر أو جمعية (أم القرى) التى أنشأها فى مكة ليست إلا مظاهر خارجية لأفكار جمال الدين الفلسفية . أو هى عملية تنفيس حاول جمال الدين بثها فى أتباع لا يعرف هو مدى استعدادهم لقبول فلسفته .

ولذلك كانت الجمعيات التى أنشأها الأفغانى قليلة التأثير فى المجتمعات التى أنشئت فيها ، وكان العمل العلنى أجدى فى الدعوة إلى الأفكار الجديدة . فكانت جريدة العروة الوثقى أهم وأكثر خطراً من جمعية العروة الوثقى السرية التى أنشأها الأفغانى فى القاهرة . وكذلك كانت صحف تلاميذ الأفغانى أهم من جمعية الماسون التى ضمت ثلاثمائة من أعيان المصريين ومفكريهم وأدبائهم وشعرائهم . وهكذا كانت الحال بالنسبة لجمعية (أم القرى) التى لم تصلنا عنها معلومات توضح نهجها وطريقة تكوينها فى مكة .

كانت الأعمال العلنية أكثر إيجابية من كل عمل سرى قام به جمال الدين . لأن الالتقاء كان يتم مباشرة بين أفكار الأفغانى وأفكار مريديه الذين كثروا بعد إنشاء

العروة الوثقى وأصبحوا ألوفاً . وهكذا كانت الحال عندما حرض تلميذه أديب إسحق على إنشاء صحيفة القاهرة ،وحرض تلميذه الآخر يعقوب صنوع على إنشاء صحيفة (أبو نظارة) .

ولذلك كانت رسالة الأفغانى تتمثل سريعاً فى تلاميذه أكثر مما تتمثل فى كتاباته ، فهو محدث أكثر منه كاتباً . وقد ظهر ذلك فيما صنعه حين أصدر (العروة الوثقى) فى باريس فكان هو مفكرها وكان تلميذه محمد عبده كاتبها ومحررها .

ومن الطاقات الفكرية الضخمة التى كان يملكها الأفغانى استمد تلاميذه طاقاتهم الفكرية ، فكان منهم المفكرون والأدباء والشعراء على نسق واحد من التجديد فى مختلف مجالات الفكر والأدب والفن .

وأصبحت مدرسة جمال الدين عنوان النهضة الفكرية فى الشرق بغير نزاع ، ومرجع ذلك إلى شخصية هذا الفيلسوف الذى لم يوف من حقه البحث والدراسة حتى اليوم على كثرة ما كتب عنه من دراسات ومقالات وذكريات .

وأصبح فكر جمال الدين متجسداً فى تلاميذه ، وعلى رأسهم خليفته الإمام محمد عبده .

أما فلسفة جمال الدين فقد كتبها فى رسالة صغيرة هى كتابة فى (الرد على الدهريين) التى نقلها من الفارسية إلى العربية الإمام محمد عبده . وقد طبعت هذه الرسالة فى اللغتين الهندية والفارسية .

وهذه الرسالة على صغر حجمها ، وإيجازها لا تقل أهمية عن مقدمة ابن خلدون التى اعتبرت أساس علم الإجتماع ، فرسالة (الرد على الدهريين) تعتبر أساساً فى علم السياسة بالنسبة للبلاد الإسلامية عامة ، وستظل موضع الدراسة والبحث بالنسبة للأوضاع الساسية القائمة فى البلاد الإسلامية .

وتكمل هذه الرسالة رسالة أخرى فى القضاء والقدر كتبها السيد جمال الدين على نسق رسالته فى الرد على الدهريين ، واستكمل بها بيان أفكاره فى الفلسفة السياسية على هدى الفكر الإسلامى السديد .

وقد كتب السيد الأفغانى رسالته فى الرد على الدهريين أيام إقامته الثانية فى الهند . رداً على سؤال من (مولوى محمد واصل) مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بمدينة حيدر آباد الدكن من بلاد الهند .

بعث مولوى محمد واصل برسالة إلى السيد قال فيها :

يقرع آذاننا فى هذه الأيام صوت (نيشر نيشر) وإنه ليصل إلينا من جميع الأقطار الهندية . من الممالك الغربية والشمالية و (أوده) و (بنجاب) و (السند) و (حيدر آباد الدكن) ، ولا تخلو بلدة أو قصبة من جماعة يلقبون بهذا اللقب (نيشرى) ويظهر لنا أن من يطلق عليهم هـذا اللقب ينمو عددهم على امتداد الزمان خصوصاً بين المسلمين ، ولقد سألت أ كثر من لاقيت من هذه الطائفة . ما حقيقة النيشرية ؟ وفى أى وقت كان ظهور النيشريين ؟ وهل من قصد هـذه الطائفة بمسلكها الجديد عندنا أن تقوض عماد المدنية ولا تعدو هذا المقصد ، أو لها مقاصد أخرى ؟ وهل طريقتهم تنافى أصول الدين المطلق أو هى لا تعارضه بوجه ما ؟ وأى نسبة بين آثار هذا المشرب وآثار مطلق الدين فى عالم المدنية والهيئة الاجتماعية الإنسانية ؟

فإن كانت هذه الطريقة من النحل القديمة فلم لم تنشر بيننا . ولم تعهد لهـا دعاة إلا فى هذه الأوقات ، وإن كانت جديدة فما الغاية من إحداثها ، وأى أثر يكون عن الأخذ بها ؟

ولـكن لم يفدنى أحد منهم عما سألت بجواب شاف كاف ، ولهذا ألتمس من جنابكم العالى أن تشرحوا حقيقة النيشرية والنيشريين بتفصيل ينقع الغلة ، ويشفى العلة والسلام .

ورد السيد جمال الدين على مولوى محمد واصل برسالة جعل عنوانها (حقيقة مذهب النيشرية والنيشريين وبيان حالهم) .

وحينما نقل الشيخ محمد عبده هذه الرسالة من الفارسية إلى العربية بمعاونة (عارف أفندى أبو تراب) تابع الأفغانى الذى كان يتقن الفارسية والعربية ،

جعل الإمام محمد عبده عنوان الرسالة (الرد على الدهريين للسيد جمال الدين الأفغانى) .

وقد كتب السيد جمال الدين فى مطلع الرسالة خطاباً إلى مولوى محمد واصل قال فيه :

« محبى العزيز :

النيشر اسم الطبيعة ، وطريقة النيشر هى تلك الطريقة الدهرية التى ظهرت فى بلاد اليونان فى القرن الرابع والثالث قبل ميلاد المسيح ، ومقصد أرباب هذه الطريقة محو الأديان ، ووضع أساس الإباحية ، والاشتراك فى الأموال والأبضاع بين الناس عامة ، وقد كدحوا لإجراء مقصدهم هذا ، وبالغوا فى السعى إليه ، وتلونوا لذلك فى ألوان مختلفة ، وتقلبوا فى مظاهر متعددة ، وكيفما وجدوا فى أمة أفسدوا أخلاقها ، وعاد عليها سعيهم بالزوال .

وأيما ذهب ذاهب فى غور مقاصد الآخذين بهذه الطريقة تجلى له أن لا نتيجة لمقدماتهم سوى فساد المدنية ، وانتقاض بناء الهيئة الاجتماعية والإنسانية ، إذ لا ريبة فى أن الدين مطلقاً هو سلك النظام الاجتماعى ، ولن يستحكم أساس للتمدن بدون الدين البتة ، وأول تعليم لهذه الطائفة إعدام الأديان وطرح كل عقد دينى .

وأما عدم شيوع هذه الطريقة وقلة سلوكها مع طول الزمن على نشأتها فسببه أن نظام الألفة الإنسانية وهو من آثار الحكمة الإلهية السامية كانت له الغلبة على أصولها الواهية وشريعتها الفاسدة ، وبهذا السر الإلهى انبعثت نفوس البشر لمحو ما ظهر منها ، ومن هذا لم يبق لهم ثبات قدم ، ولم تقم لهم قائمة أمر ، فى أى وقت من الأوقات » .

لقد كان الشيخ جمال الدين من أسبق المفكرين إلى كشف فساد المذاهب التى أثرت وما زالت تؤثر فى الفكر الإسلامى عامة وفى الفكر العربى خاصة . وكان هذا الفيلسوف أكثر ذكاء من أصحاب هذه المذاهب ، فاستطاع فى إيجاز مقنع أن يكشف مفاسدها ، ويعريها أمام أعين القارئين والباحثين .

والدلالات العامة التى تحويها هذه الرسالة الموجزة فى الرد على الدهريين تدلنا على عمق الدراسة وسعة الأفق ، وامتلاك ناصية الحجة ، وإنك لتجد خلف كل كلمة كتبها الفيلسوف الأفغانى علماً واسعاً عميقاً بحقائق المشكلات التى تتعرض لها البشرية ، فهو بعقله العبقرى جامع بين فلسفة الشرق وبين علوم الغرب فوق علمه بالإسلام قرآناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وعقيدة صافية مطهرة من الضلالات والأوهام .

ويستند فيلسوفنا فى مناقشاته إلى أساسين :

أولا : العلم التجريبى .

ثانيا : المنطق العقلى .

وهو يفكر بطريقة الفلاسفة من أمثال ابن سينا وابن رشد ، وقد لاحظ ذلك الفيلسوف الفرنسى الشهير رينان حين عرض لمناقشة الأفغانى فى آفات الشرق والإسلام ، وقال إنه كان يتخيل أنه يجلس إلى ابن رشد أو ابن سينا حين يلتقى بالشيخ جمال الدين .

وقد تناول السيد قضايا أساسية فى حياة المجتمع الإسلامى الحديث وناقشها بهذه الطريقة الفلسفية وهذه القضايا هى :

١ — مذهب داروين فى النشوء والارتقاء الذى خلب لب كثيرين من المسلمين فصدقوه على غير علم أو بنصف علم لم تستكمل أدواته .

٢ — مذهب فولتير وجان جاك روسو فى بناء المجتمعات الحديثة على أساس إنكار الدين مما أخذ بلب الدارسين فى بلادنا واعتبروه بداية النهضة أو الحركات التحريرية ، وهو بعيد عن ذلك .

٤ — والمذاهب السياسية المستحدثة وهى: المذهب الاجتماعى (السوسياليزم) ، والمذهب العدمى (النهليزم) والمذهب الشيوعى (الكوميونيزم) ، مما حاول كثير من الباحثين إقحامه على حيــاة المسلمين فى غير تبصر أو عن سوء قصد . مع أن الإسلام وحده كفيل بحل كل المشكلات الإجتماعية وقادر على إسعاد المسلمين كما أسعدهم من قبل .

٤ — استعادة قيمة الدين فى حياة المجتمع الحديث ، وأن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان .

٥ — بيان عقيدة القضاء القدر فى رسالته عن (القضاء والقدر) وتوضيح أن هذه العقيدة ليست هى مذهب الجبرية ، وليست داعية إلى التواكل بل إلى العمل .

وسوف أحاول توضيح المذهب الفلسفى لجمال الدين فى هذه القضايا التى ما زالت قائمة فى حياة المجتمع الإسلامى حتى اليوم ، وستظل قائمة إلى أن يهب الله الأمة الإسلامية مجدداً يوضح لها طريق الحياة .

لقد وضع الأفغانى فى رسالة (الرد على الدهريين) دعائم فكره السياسى موضحاً ذلك التوجيه على أساسين:

أولا : رفض المذاهب المستوردة باعتبارها دخيلة على المجتمع الإسلامى وغير ملائمة لأهله .

ثانياً : تقرير مبدأ أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان .

ويرى الأفغانى أن بعض المتعلمين الذين لقنوا أفكار الأوروبيين أو الغربيين كانوا يتعاونون مع الاستعمار من أجل مصالحهم الذاتية ، ويستعين بهم لتثبيت أقدامه فى أوطانهم .

وقد تحدث عن ذلك كثيراً فى مقالات العروة الوثقى .

وظهر أثر ذلك على المدى البعيد فى أقطار شرقية عديدة ، وكان خطر المذاهب المستوردة فى الشعوب الإسلامية جسيما ، وما زالت آثاره تمثل النكسة التى عاش فيها الشرق خاضعاً لأفكار الغرب .

ويتبجح بعض دعاة هذه المذاهب من متعلمى الشرق حين يروجون لها ، فيذكرون أنها وسائل الحضارة والمدنية ، والاتصال بالتيار الفكرى الحديث ، وينخدع بهم العامة والبسطاء ويجرون خلف ضلالهم .

وأساس الحضارة والمدنية هو العلم ، لا التقليد فى مذاهب السياسة والاجتماع .

ومن الخداع الذى سلكه الملقنون محاولة إقناع الناس بعلم لم يقر له أصحابه بالصواب مثل مذهب (داروين) فى النشوء والإرتقاء . حيث اعترف علماء الغرب بأن هناك حلقة مفقودة فيما أورده هذا العالم من آراء .

لقد كانت نظرية داروين الشغل الشاغل لطبقة المتعلمين فى مصر والشام فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وكانت مجلة المقتطف منبراً من منابر (الداروينية) ، كما كان الدكتور شبلى شميل داعيتها هو وغيره من المتعلمين . ولم يرق هذه الدعوة حتى أثر فى عقائد كثيرين من المتعلمين وأنصاف المتعلمين فظهر عصر الشك فى البلاد الإسلامية مع بزوغ النهضة الحديثة ، واقترنا معاً بصراع فكرى عنيف لم يستطع دعاة الإسلام الوقوف أمام تياره بسبب عجزهم الفكرى . وقصورهم عن مجاراة التقدم العلمى الذى تطلع إليه أبناء الشعوب الإسلامية .

وفى هذا الوقت وجهت الإتهامات إلى جمال الدين الأفغانى وتلميذه الأكبر محمد عبده ، وحملت عليهما الرجعية الدينية حملات عنيفة مكنت المتشككين من بلوغ مرادهم . وظهر ذلك فى مناهضة دعوة الشيخ محمد عبده لإصلاح الازهر وإدخال العلوم الحديثة فى دروسه اقتداء بهدى أستاذه الأفغانى ، فرمى من شيوخ الأزهر باتهامات كثيرة بلغت حد الاتهام بالكفر فى بعض الأحيان . بينما كان بعض هؤلاء الشيوخ لا يعلم شيئاً عن علم الجغرافيا ، فلا يدرى إذا كانت لبنان فى الشرق أو فى الغرب .

وحينما أفتى الشيخ محمد عبده بجواز لبس القبعة للمسلمين فى بلاد الترنسفال ، قامت قيامة الرجعية الدينية فى مصر وآزرها بعض المتعلمين الذين وأصفهم الشيخ جمال الدين بأنهم أعوان الاستعمار ، ولم يقف هؤلاء مثل هذا الموقف أمام تيار الإلحاد والشك الذى قاده مروجو مذهب داروين ، وحسنوه فى أعين الشباب المثقف .

وأعجب من ذلك أن هؤلاء الذين غضبوا لارتداء المسلم للقبعة ، لم يغضبوا

لارتدائه جميع ثياب الافرنج غير المسلمين من البدلات والأقمصة وأربطة العنق والأحذية لأن هذه الملابس كلها كان يرتديها الملوك والباشوات فكيف يحكمون على سادتهم بالكفر ؟

ولكنهم قالوا فى ذلك الوقت : إن من تزيا بزى قوم فهو منهم ، وأغضوا عيونهم عن كل الأزياء إلا القبعة التى أفتى الشيخ محمد عبده بجواز ارتدائها . . .

وتعددت اتجاهات الصراع بين الشرق والغرب فى تلك الفترة التى ظهر فيها جمال الدين الأفغانى ولحظ الفيلسوف هذه الحقيقة ، وكشف القناع فى رسالته عن خفايا هذا الصراع الذى أحدثه الاستعمار ، ليتمكن من السيطرة على بلاد المسلمين .

الرد على مذهب داروين :

انتقد الشيخ جمال الدين مذهب داروين بعنف ، ورد أصوله إلى مذاهب قدماء الفلاسفة من اليونان ، موضحاً هذه المذاهب واتجاهاتها الإلحادية .

ورأى دعاة هذا المذهب أن سوء الفهم هو الذى أدى إلى معارضة مذهب داروين ، فقد ذكر المرحوم الاستاذ اسماعيل مظهر العالم المصرى الشهير ومترجم كتاب (أصل الأنواع لداروين) أن جمال الدين الأفغانى قال فى كتابه (الرد على الدهريين) : إن رأس البرغوث تشبه رأس الفيل فهل يمكن بالتطور أن ينقلب البرغوث فيلا ؟ ورد الأستاذ اسماعيل مظهر هذا التفكير إلى سوء الفهم لهذا المذهب .

ونستطيع أن ندرك فى يسر لماذا تحمس دعاة داروين لمذهبه فى شرقنا العربى ، فقد كانت فكرة الحرية العلمية تشق طريقها فوق أشلاء الأفكار الرجعية الجامدة التى عاشت فيها بلادنا العربية طوال الحكم العثمانى . وكانت النافذة الوحيدة المفتوحة أمام دعاة الحرية والتجديد فى مطالع العصر الحديث هى النافذة الغربية ، ولذلك ارتبط هؤلاء العلماء بالأفكار العلمية الغربية ، ولم يصنعوا ما صنعه أسلافهم من العرب حين ترجموا فلسفة اليونان وحكمة الهند وأدب الفرس ، وأفادوا منها جميعاً ، وصبغوا الفكر الاسلامى الحر غير المقيد بآراء اليونان والهنود والفرس .

لقد بهرتهم أضواء الحضارة الغربية ، فساروا خلفها ، مما دعا السيد جمال الدين إلى نقض آراء الغربيين ، وتعريتها أمام أعين المسلمين ، لا رغبة فى تركها وعدم الإفادة منها ، ولكن أملا فى فتح باب الاجتهاد أمام علماء المسلمين لا فى الشريعة فحسب ، ولكن فى العلوم والآداب والفنون ، حتى يظهر فكر إسلامى جديد يساير التطور العلمى الحديث فى أوروبا .

ظهرت النزعة العلمية الحديثة فى مصر بصورة قوية لافتة ، وكان أظهر ما فيها عملان كبيران هما مجلة المقتطف التى أصدرها أصحاب جريدة المقطم وعلى رأسهم الدكتور فارس نمر والدكتور يعقوب صروف ، ومجلة العصور التى أصدرها الأستاذ اسماعيل مظهر .

وكان فرسان هذه النزعة العلمية اللامعون خلال فترة طويلة من فترات النهضة العربية هم : يعقوب صروف وشبلى شميل من كتاب المقتطف واسماعيل مظهر محرر مجلة العصور .

غير أن هذه النزعة العلمية كانت قد سبقت إلى الهند، مما دعا الأفغانى إلى تأليف رسالته فى (الرد على الدهريين) .

ولا شك فى أن ثمار هذه النزعة العلمية كانت دانية القطوف فى مجالات كثيرة ، فقد ترجمت إلى العربية آراء كبار العلماء والمفكرين الغربيين ، وبدأ التيار العلمى يسيطر على الفكر العربى الحديث ويدفعه إلى النهوض من ظلمات الجهل والغباء التى سيطرت عليه أكثر من أربعة قرون .

وكان هذا العمل أضخم أثراً من حملة بونابرت على مصر ، لأن أثر علماء حملة بونابرت على مصر والشام كان محدوداً ، أو كان بداية للتطلع عند فئة معينة من فئات الشعب أبدت الدهشة مما شاهدته من مظاهر التقدم العلمى ، وقد صور ذلك الشيخ عبد الرحمن الجبرتى مؤرخ تلك الفترة عندما شاهد معامل الكيمياء التى جلبتها الحملة معها إلى مصر . ويمكن أن يقال إن علماء حملة بونابرت أفادوا من دراسات مصر أكثر مما أفاد المصريون ، فقد ألفوا الكتب ، واستطاعوا حل رموز اللغة الهيروغليفية بعد اكتشاف حجر رشيد ، ودرسوا مصر فى مجالات مختلفة دراسة علمية جديدة .

ولم ينتقل العلم الغربى إلى المصريين عن طريق حملة بونابرت بالصورة التى ذكرها المؤرخون ولكن الحملة فتحت أبوابا جديدة لالتقاء مصر بالغرب ولم تكن هذه الأبواب مغلقة كما يفهم مما كتبه كثيرون من المؤرخين ، فإن لقاء مصر بالغرب كان دائماً طوال حكم المماليك ، وكانت تعيش فى القاهرة جالية أوروبية كبيرة . بل إن من الأسباب التى ادعاها بونابرت لمهاجمة مصر فى عهد المماليك هو ظلمهم للرعايا الفرنسيين المقيمين فى مصر .

وقد صور الجبرتى مجتمع القاهرة إبان حملة بونابرت تصويراً يدفعنا إلى القول بأن الحياة الغربية كانت قائمة فى قلب القاهرة حتى فى مظاهر العبث والمجون ، ومن الأشعار المذكورة فى تصوير هذه الآونة ما وصفه الشيخ حسن العطار الذى تولى مشيخة الازهر ، حيث يقول :

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم

فى مصرنا ما بين حمار وخمار

ولم تنتقل النزعة العلمية إلى مصر بعد حملة بونابرت ، فقد ظلت الحركة العلمية فى عهد محمد على قاصرة على فئات معينة من الشعب يمكن حصرها وتحديد أسماء العاملين فى حقلها فى كل المجالات .

أما حركة العلماء العرب الذين ظهروا على صفحات المقتطف والعصور وغيرها من المجلات والصحف أو الكتب والمطبوعات ، فقد كانت حركة إيجابية نقلت العلم إلى جماهير المثقفين فى كافة البلاد العربية . وكانت عميقة الأثر فى الحركات الفكرية والاجتماعية والسياسة التى سادت أرجاء الوطن العربى .

ولكن هذه النزعة العلمية تميزت بالتعصب المسرف ، والتسليم المطلق الذى انتقده (توماس هنرى هكسلى) حين ألقى خطابه عند إزاحة الستار عن تمثال داروين فى المتحف الأهلى للتاريخ الطبيعى بلندن يوم ٩ يونيو سنة ١٨٨٥ ، فقد قال هذا العالم الكبير .

« لا نطلب منكم وضع التمثال فى هذا المكان الأمجد ، وفى مدخل المتحف الأهلى للتاريخ الطبيعى ، كشاهد على أن مذهب (داروين) قد نال منكم عهد التسليم

المطلق به ، فإن العلم لا يعترف بهذا الرخص ، ذلك بأنه إذا نزع إلى المذهبية . آذن بانتحاره » .

ومع أمجاد النهضة العلمية التى أذكاها هؤلاء الأعلام من أمثال إسماعيل مظهر ويعقوب صروف وشبلى شميل وغيرهم ، كان التسليم المطلق بحضارة الغرب وعلوم الغرب ، وفوق قمة كل ذلك كانت « نظرية داروين » التى قاومها الأفغانى فى الهند ، وقاومها تلميذه محمد عبده فى مصر حين ترجم رسالة أستاذه إلى العربية ليحرر الفكر العربى من عقدة التسليم المطلق ، ومن خطر المذهبية العلمية التى تحطم كل شىء ، وتقلل من قيمة العلم ذاته .

وخلاصة « نظرية داروين » هى :

(أن الأنواع متأصل بعضها عن بعض ، وأن الإنسان حيوان متطور) .

وخلاصة الفكرة الإسلامية فى نشأة الإنسان كما جاءت فى القرآن الكريم :

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس إستكبر وكان من الكافرين ، قال يا أبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى، أستكبرت أم كنت من العالين ؟ قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ! » .
(سورة الزمر ٧١ — ٧٦)

وبين الفكرتين تعارض أساسى ، ولا سبيل إلى محاولة التوفيق بينهما فى ضوء العلم ، كما يحاول بعض المحدثين من أنصاف المثقفين أن يفعلوا خداعاً لعامة الناس ، وجرياً وراء الشهرة .

وما كان للقرآن أن يفسر بآراء العلماء والمفكرين الغربيين ، أو أن تتخذ آياته دلائل على صدق ما وصل إليه العلم الحديث من مخترعات أو مبتكرات ، وليس أدل على السذاجة مما نقرأه اليوم فى كلام غريب يربط بين مبتكرات العلوم وبين آيات القرآن .

إننى أعتقد أنها عقدة النقص تدفع هؤلاء الكتاب إلى هذه الكتابات

الساذجة . ولم أر فى عالم المسيحية محاولات لربط ما ورد فى العهد القديم أو العهد الجديد بالعلم الحديث . وما قرأت فيما كتبه أعلام الفلاسفة من العرب القدماء شيئاً من هذا السخف على ما وصل إليه العرب من ازدهار الحضارة وسمو العلم .

ما بال هؤلاء السذج البسطاء كلما ظهر اختراع جديد، أو ابتكار مستحدث ، سارعوا إلى آية من آيات القرآن يدعون أنها تنبىء بما سيحدث أو تفسر ما حدث .

إنهم لا يفهمون القرآن ، ولا يدركون أسراره الخالدة على مر الزمان وفى كل البيئات ، وهم مأخوذون بما يرون من مظاهر ساذجة بسيطة تبدو فى الدنيا، ومن فوقها فاطر السموات والأرض .

هكذا أخذ شيخنا الأفغانى بناصية الفكر الإسلامى الحر ، وكتب كلماته الرائعة فى الرد على (داروين) ومن حذا حذوه من المأخوذين .

(الإنسان حيوان متطور)

هذا هو جوهر القضية ، وكل ما عداها من بحث علمى فى الكائنات من حيوان ونبات وجماد تابع لها فى نظرية النشوء والارتقاء .

إن النظرية الإسلامية الواضحة هى أن الله خلق الإنسان . ولم يطوره عن شىء سواه . والأديان السماوية كلها مجمعة على خلق الإنسان وعلى أن الله خلق الإنسان ، وعلى أن الله خلق آدم فى صورته التى لم تتطور عن شىء آخر من جماد أو حيوان .

« خلق الإنسان ، علمه البيان » .

وشيخنا الأفغانى فيلسوف الإسلام فى هذا العصر ، لم يكن ضيق الفكر حين رد على (داروين) . ولكنه كان يفكر بالعقل الذى دعا إليه الإسلام وحض عليه القرآن ، فلم يقف أمامه بتفسير لآية من آيات القرآن، ولكنه وقف بروح القرآن وهدى القرآن .

ولم يبحث الشيخ الفيلسوف عن آراء المفسرين يخرجها تخريجاً على طريقة الجامدين من العلماء، ولم ينحرف إلى رأى المتعالمين الذين يتسقطون الكلة ليفسروا بها مظاهر الوجود ، ولكنه رد بالعلم على عالم ، وحطم آراء المفكر بالفكر .

وإذا كان علماء المسيحية قد رفضوا رأى « داروين » بالعقيدة المرتبطة بالكتاب المقدس ، وعارضوه بالعقيدة وحدها باعتبارهم رجال دين ، فإن الفيلسوف الأفغانى وقف منه موقفاً مغايراً ، فرد عليه بالعلم قبل العقيدة لا أملا فى رده عن بحثه العلمى المجرد ، ولكن أملا فى تنوير السذج الذين اعتقدوا أن العلم فوق كل شيء ، وهو بهذه الوسيلة يحتمى مزية الفيلسوف الإسلامى سفير الله .

لقد استغل الاستعمار البريطانى نظرية (داروين) أملا فى زعزعة عقيدة المسلمين ، لأن الاستعمار يعلم أن هذه العقيدة هى التى تثل عرشه ،وتحطم وجوده ، ولذلك بدأ بها فى الهند باسم الطبيعة أو (الناتشر) كما ذكر الشيخ جمال الدين ثم نقلها إلى مصر على صفحات المقتطف ، ولست أتهم أحداً فى هذا المجال بموالاة الاستعمار ، فإن العامة يعرفون من سيرة المقطم والمقتطف مالا سبيل إلى إنكاره من وثوق العلاقة بين دار المندوب السامى البريطانى فى مصر وبين دار المقطم والمقتطف .

ولعلها كانت نبوءة من الشيخ حين كان مقيما فى الهند ، ان يدرك هذه الحقيقة . فقد كشف الله بصيرته فرأى ما يراد بالمسلمين من هوان ، وكتب كلماته فى الرد على (داروين) إمام الدهريين فى هذا العصر .

وعاصرت فكرة (داروين) فى مصر والشام بعد ذلك أفكار المتشككين حتى فى وجود الله . وقد رأيت بعضهم فى حياتى ، وكانوا ينسبون أنفسهم إلى المقتطف وإلى شبلى شميل بالذات .

وكيف يصنع الاستعمار بهذه الفقاقيع أكثر من إثارة الشك ، وبلبلة الفكر ، والسيطرة على صفوة العلماء والمثقفين .

« الشك فى وجود الله واحد أحد »

هذه هى نتائج نظرية (داروين) التى تسربلت برداء العلم المجرد فى البحث عن الكائنات .

ولذلك وقف الأفغانى من نظرية (داروين) موقفه الحاسم ، لسببين أساسيين :

أولا : ان هذا المذهب ينافى العقيدة الإسلامية حيث يعتبر أن الإنسان حيوان متطور ، والقرآن الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه يذكر أن الله سبحانه وتعالى سوى آدم من طين . من حمأ مسنون ثم نفخ فيه من روحه ، فسرت فيه نسمة الحياة ، وقصة خلق آدم أشهر من أن نرويها للقارئ ، فهو طبقاً للعقيدة الإسلامية ليس حيواناً متطوراً ، ولكنه من خلق الله جلت قدرته .

ثانيا : أن استغلال مذهب (داروين) فى بلبلة عامة المسلمين ، عمل يقصد الاستعمار من ورائه تفتيت قوة الإسلام عن طريق زعزعة العقيدة . وبذلك يتخلص من أقوى معارضة لوجوده فى بلاد الشرق الإسلامى عامة .

ولم يقف الشيخ جمال الدين فى رده موقف رجل الدين المتزمت . ولكن وقف موقف الفيلسوف المفكر . ولذلك فإنه لا يمكن أن يقال: إنه عارض مذهب (داروين) بسبب سوء الفهم . ولكنه أدرك خطر هذا المذهب على عقيدة المسلمين وعلى كيانهم فنقده بأسلوب الحكيم ، وذكر من شواهد الطبيعة ما يقوم دليلا على فساد هذه النظرية ، كما ورد فى رسالة الأفغانى بالنص الكامل .

أليس بكاف عند هؤلاء الزنادقة أنهم يعلمون علم يقين أن هناك حلقة مفقودة عند (داروين) لم يصل إليها ، ولم يصل إليها أتباعه ، ولا يزالون فى شك من نظريتهم لا يقين عندهم بالعلم المجرد ، ولا وسيلة لديهم حتى يحققوا علمياً ما شرحه زعيمهم الذى وصفناه بأنه زعيم الملاحدة فى هذا العصر .

أما تلك الدعوة التى دعاها شيخنا جمال الدين الأفغانى فتلك هى دعوة الإسلام التى نص عليها القرآن فى قوله تعالى :

(هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون) .

نقض آراء فولتير وجان جاك روسو :

وكما وقف الأفغانى ضد نظرية (داروين) فى النشوء والارتقاء ، وقف أيضاً ضد آراء فولتير وجان جاك روسو التى بهرت العالم الشرقى حين ذاعت شهرتها بين أوساط المثقفين .

وقد يعجب بعض الناس من معارضة جمال الدين لآراء هذين المفكرين الثائرين ، وهو الشيخ الثائر الذى تتوافق آراؤهما الثورية مع رأيه حباً فى العدالة ، وحقوق الشعوب ، ولكن الذى دفع جمال الدين إلى معارضة فولتير وروسو ليس هو مذهبهما الثورى ولكنه وقف منهما هذا الموقف لسببين جوهريين :

أولها : أنهما من الملاحدة الذين ينكرون وجود الله ، ويجاهرون بالإلحاد مما يتنافى أصلا مع دعوة الشيخ الموحد .

وثانيهما : أن الأفكار التى يدعوان إليها وهى أساس الثورة الفرنسية لا تصلح للأمم الإسلامية حين تثور على طغيان ملوكها وحكامها .

فقد كان فولتير (١٦٩٤ — ١٧٧٨) حامل لواء الأدب الفرنسى فى القرن الثامن عشر ، وحارب الكنيسة وامتيازات الأشراف وسوء تصرف الملوك وفساد القوانين بأسلوب تهكمى مثير جعل الناس يسخرون من جميع أنظمة عصرهم ، وخاصة نظام الكنيسة ، فقد كانت لها ثروة طائلة من دخل الأراضى الموقوفة التى بلغت خمس أرض فرنسا ، وكانت معفاة من الضرائب ، وفوق ذلك كان لها دخل كبير من أموال كانت تفرض على العامة وحدهم وأصبح كبار رجال الكنيسة يتمتعون بحياة الترف التى لم يصل إليها الأشراف والإقطاعيون .

وقيل إن كل مائة فرنك من دخل الفلاحين كانت الحكومة تستولى منها على ٥٣ فرنكا والكنيسة تتقاضى ١٤ فرنكاً ، والأشراف يأخذون نظير امتيازاتهم ١٤ فرنكا ، ولا يبقى للفلاح الفرنسى إلا نحو ١٥ فرنكا .

وقد اتخذ فولتير من هذه الحالة الغريبة مادة لكتاباته المثيرة ، وصب سخريته على الكنيسة ورجالها ، مما دفع عامة الناس إلى الكفر برجال الدين ، والإلحاد .

أما روسو (١٧١٢ — ١٧٧٨) فقد تشبع بروح فولتير وأخرج للناس ما كانوا يتوقون إليه من الأنظمة التى شرحها فى كتابه الشهير (العقد الاجتماعى) . وقد سمى هذا الكتاب بإنجيل الثورة ، وأصبح بديلا عند الفرنسيين عن الكتاب المقدس . وقد ذكر روسو أقوالا شائقة عن حقوق الإنسان فقال :

(ولد الإنسان حراً ولكنه الآن مكبل بالأغلال فى كل مكان . وقد يعتقد شخص أنه سيد غيره ، وهو لا يدرى أنه أكثر منهم عبودية) .

كما شرح العلاقة بين الشعب والحكومة . وأكد مبدأ « الشعب مصدر السلطات » .

وقد توهم بعض المؤرخين أن هذه الآراء أصبحت عالمية وأن الدنيا بأسرها تقدسها لذاتها . ونسوا فى غمرة البريق الخاطف الذى سطع من آراء فولتير وروسو فى أوروبا أن الثورة الأمريكية كانت سابقة للثورة الفرنسية ، وأنها لم تتلق تعليماتها من كتاب (العقد الاجتماعى) لروسو . بل من واقع الحياة وامتد هذا البريق الخادع إلى البلاد الإسلامية منذ حملة بونابرت على مصر ، ولكن القاهرة لم تقبل مبادىء الثورة الفرنسية وثارت على بونابرت مرتين ، واعتصمت بالأزهر الشريف الذى دخله الفرنسيون راكبين خيولهم .

وحين حاول نابليون نفسه أن يلبس الشيخ عبد الله الشرقاوى وشاح الثورة الفرنسية المثلث الألوان أبعده الشيخ عن نفسه ، ورفضه ، وقال لبونابرت باللغة الفرنسية . .

— نو . . نو . . نو .

وقد يقول قائل وأنا أكتب هذه الكلمات إننى أتحدث عن الرجعية أو الليبرالية أو غيرهما من أسماء . ولكن الواقع الذى لن يغيره قائل هو أن الشيخ الشرقاوى كان يحس بإسلامه ، ويؤمن بربه ، ويرفض هذه المبادىء المستوردة .

ان الإسلام أقوى من الرجعية والليبرالية ومن كل مذهب وضعى يسمى باسم من الأسماء .

وهذا الشيخ الشرقاوى لم يرفض شعار الثورة الفرنسية إلا لأنه مسلم .

وهؤلاء الذين روجوا لمبادىء الثورة الفرنسية فى دار الإسلام هم أعداء الإسلام ، ولو كانت لهم أسماء المسلمين .

وماذا قال فولتير وجان جاك روسو ؟

هل قالا : إن الناس ولدوا أحراراً ويجب أن يعيشوا أحراراً ؟ .

ولست أريد أن أذكر مبادىء الإسلام فى الحرية ، فإنها أشهر من أن تكتب اليوم ، وقد عرفها العامة من الناس ، طوال أربعة عشر قرنا من الزمان .

ويحسن أن نروى هنا قصة عمرو بن العاص مع عمر بن الخطاب ، فقد كان عمرو والياً لمصر ، وكان ابنه يجرى الخيل فى ميدان السباق ، فنازعه بعض المصريين السبق واختلفا فيما بينهما لمن يكون الفرس السابق . وغضب ابن الوالى فضرب المصرى وهو يقول :

ـــ أنا ابن الأكرمين .

فاستدعى عمر الوالى وابنه حين رفع إليه المصرى أمره ، ونادى بالمصرى فى جمع من الناس أن يضرب خصمه ، قائلا له :

ـــ اضرب ابن الأكرمين .

ثم أمره أن يضرب الوالى لأن ابنه لم يجرؤ على ضرب الناس إلا بسلطانه ، وصاح بالوالى مغضباً :

ـــ بم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ! .

ومن المفهوم عند كافة الناس أن الإسلام هو دين الحرية ، ولذلك فإن شيخنا الأفغانى لم يتعرض لآراء فولتير وروسو من ناحية دعوتهما إلى الحرية وحقوق الإنسان لأنهما بذلك يسيران مع الخط الإسلامى فى دعوته إلى تحرير الإنسان ، ولكنه يعارضهما فيما سخرا فيه من الدين والإله والتحلل من مبادىء الإيمان بالسماء .

ولا يرى الشيخ فيما ذكراه من مبادىء تحرير الإنسان جديداً فى الفكر الإسلامى . ولذلك فإن ما زعمه لها دعاة التجديد من مزاعم لا قيمة له فى بلاد المسلمين التى سبقت الثورة الفرنسية بثورتها الإسلامية قبل مئات السنين .

ودعوة جمال الدين كفيلسوف سياسى كانت حافزاً للنهضة الحديثة التى أخرجت للمسلمين عشرات المؤلفات التى أعادت للشعوب الإسلامية ثقتها بعد فترات طويلة من حياة الظلام . فظهرت فى مصر مؤلفات إسلامية أقامت حياة جديدة للمجتمع الإسلامى كله ، وتزعم هذه الحركة الفكرية أعلام من تلاميذ الأفغانى ومن جيل جديد نعتبره من تلاميذ الأستاذ الإمام محمد عبده عن طريق التلقى المباشر أو التأثر بالنهضة الفكرية الجديدة التى بعثها الأستاذ الإمام .

وقد أدرك الباحثون الشرقيون والغربيون هذه الحقيقة عندما تحدثوا عن مصطفى عبد الرازق وعلى عبد الرازق ومحمد حسين هيكل وطه حسين وأمين الخولى وعباس محمود العقاد وغيرهم ممن أثروا الفكر الإسلامى الحديث بأفكارهم وأبحاثهم .

وإذا كان الدكتور محمد حسين هيكل هو الذى اهتم بجان جاك روسو وتحدث عنه وألف وكتب ، فهو أيضاً صاحب كتاب (محمد) أشهر كتاب ألف فى العصر الحديث عن الرسول .

وقد كانت دعوة الأفغانى مس الكهرباء فى الهند ، فقد ظهر (محمد اقبال) فيلسوف باكستان المسلم يهاجم القاديانية هجوماً عنيفاً من الوجهة الإسلامية والوطنية ، ويدعو إلى تحطيم أعوان الاستعمار من المسلمين الذين خذلوا الإسلام ، ويسترد للمسلمين فى الهند دعوة (لا إله إلا الله) ، ويتجه إلى فهم الإسلام فى ضوء الحياة المعاصرة وأن يكيفها ويطبعها بطابع إسلامى .

وقد يزعم زاعم أن ما نقرره من اتصال فكر الأفغانى بأفكار الكتاب والمفكرين لا دليل عليه من المسجلات فى الكتب والمراجع ، ولكن هؤلاء أبعد الناس عن فهم الحياة العقلية والفكرية ، لأن الأفغانى ليس مؤلف كتب ، ولكنه فيلسوف مفكر انتشرت أفكاره عن طريق تلاميذه ، وأيقظت الشرق كله من سباته .

نعم هو رجل واحد . ولكنه استطاع فى قدرة مذهلة خارقة أن يبسط فكره فوق رقعة واسعة من الأرض تضم ملايين من البشر ، اضطربت أفكارهم واستعبدتهم قوى الاستعمار تحت شعارات زائفة .

سمعوا اسم (داروين) و «فولتير» و (جان جاك روسو) وما يزالون يسمعون هذه الأسماء . وقد ربى الاستعمار فى نفوسهم عقدة النقص . نخشعت أبصارهم لهذه الأصنام ، وهم لا يعلمون إلى أين يسيرون وكيف يكون المصير ؟

والأفغانى هو الذى حطم عبودية هذه الأصنام ، ورفع الفكر الإسلامى إلى مستوى الفكر العالمى المعاصر بعد كبوة صنعها الاستعمار العثمانى ثم تلقفها منه الاستعمار الغربى .

لقد خبت جذوة هذا الفكر منذ عهد المعتصم الخليفة العباسى الذى استعان بالترك وجعل منهم جيشاً يحميه . فبدد الدولة وأضاع الحضارة ، وجعل الإسلام سلعة لكل راغب فى المجد أو فى الثراء . فلا عقيدة ولا إيمان ولكن مظاهر شكلها إسلامى وباطنها غير إسلامى .

وقد تدهورت دولة الإسلام ، حتى تلقفها ابن عثمان مسلماً فى الظاهر ، شعوبياً فى الباطن . يطلب المجد فوق أشلاء المسلمين ، فمحيت حضارة الإسلام ، واندثرت تعاليم القرآن ، ولم يقل واحد من المسلمين لأحد من الطغاة مثل ما قاله جمال الدين الأفغانى للطاغية عبد الحميد سلطان الآستانة وخليفة الاسلام ، حين حدثه عن مجد الإسلام ، فقد قال شيخنا الأفغانى للطاغية الأحدب .

— لو استعرب الترك لصلحت دولة الإسلام .

ولكن الترك كانوا يريدون للعرب أن يستتركوا ، وقد فات الأوان حينما قال الأفغانى كلمته .

لقد كان جمال الدين يسعى لغرض غير ما كان يسعى إليه السلطان عبد الحميد ، وكان الفيلسوف الأفغانى يعرف نوايا السلطان من رغبة فى التسلط وبسط النفوذ ، ورغم ذلك حاول استخدامه لتحقيق أهدافه الإسلامية

ولو عاش جمال الدين في دولة تيمورلنك الطاغية الأعرج ، ولاقاه كما التقى به ابن خلدون ، لقال مثل هذا القول . ولكن ابن خلدون لم يقل هذا على ما نقدره لهذا العالم الكبير من قدر في علوم الاجتماع .

جرنا إلى هذا الحديث ما دعا إليه الأفغانى من العودة إلى تعاليم الإسلام ، ودحض آراء داروين وفولتير وجان جاك روسو وأمثالهم ممن أثروا فى أفكار المسلمين عامة خلال العصر الحديث ، ولو شئنا الاستمرار فى هذا البحث لخرجنا عن جوهر الموضوع الذى نكتبه ، ولكنها الأحداث تلاحقنا فلا نرى لها دفعاً إلا بمثل ما نكتب من كلمات .

ونحن لانعارض آراء هؤلاء الغربيين أو غيرهم ، ولكننا لا نوافق اتجاهاتها لاختلافها أساساً عن آرائنا ومعتقداتنا ، وإذا كان أهل المذاهب غير الإسلامية لا يقبلون آراء المسلمين بل يعتزون بما يذهبون إليه من رأى . فلم نقبل نحن بغير سبب رأى هذا أو ذاك من المفكرين ؟ !

وقد حرص المستشرقون على تجريح جمال الدين الأفغانى حرصاً شديداً لسبب أفكاره المناوئة لاتجاهاتهم عموماً على اختلاف أقدارهم فى العلم والفهم .

وحين قال محمد إقبال(١) إن جمال الدين كان إنسانا له نظرة عميقة فى الفكر الإسلامى والحياة الإسلامية ، وإنه لو ركز قوته الذهنية فى خدمة الإسلام كنظام للتوجيه الإنسانى ، والحياة الاعتقادية للإنسان لوجد العالم الإسلامى اليوم على أساس أقوى بكثير .

حين قال إقبال هذا الكلام تصدى له المستشرق الإنجليزى (جب) وعلق على قوله قائلا :

« ان العمل الوحيد الذى نشر لجمال الدين هو كتاب (الرد على الدهريين) وهو عمل لا يوحى مطلقاً بأن جمال الدين إنسان له هذه الاستطاعة العقلية على نحو ما تنبأ به إقبال »

---

(١) كتب محمد اقبال قصيدة طويلة فى كتاب « جاديدنامة » عن جمال الدين الأفغانى .

هكذا رأى المستشرقان براون وتشارلز آدمز فيلسوفنا الأفغانى، شخصية تمالكها الحقد على الاستعمار الغربى بعد أن تمكنت منه العاطفة غير المعتدلة فى أحكامه ومقاييسه، أما نصيبه فى التفكير فغير وافر وغير عميق .

وليس هناك شك فى أن صورة الأفغانى تقلق الأوروبيين عامة حرصاً على مستعمراتهم، فهو عدو الاستعمار بكافة صورة، وهو المنبه الأول للشعوب الإسلامية الذى لفت النظر إلى عمليات الغزو الفكرى لحاربها ؛ ولذلك فإن اتهامه بهذه النقائص ليس عجيباً . وكان يحسن بهؤلاء المستشرقين أن ينزهوا أنفسهم عن هذه النقائص لأن الذى حكم على عقلية جمال الدين الأفغانى لا يملك من الطاقات الفكرية ما يمكنه من إصدار هذا الحكم الشاذ على رجل استطاع وحده أن يقلب العالم الشرقى، ويفتح أمامه أبواب الثورات .

ولا أعتقد مع ذلك أن الأستاذ جب استطاع أن يفهم رسالة (الرد على الرهريين) لأنها لم تترجم إلى الإنجليزية ولأن قراءتها بالعربية تحتاج إلى عناء شديد .

كما أن الأفغانى ليس هو رسالة (الرد على الدهريين) وليس مؤلف كتب على الإطلاق، بل إنه مدرسة فلسفية فكرية كتبها هم تلاميذه الذين حملوا تعاليمه واستطاعوا تحرير الفكر الإسلامى الحديث من الشوائب ورده إلى أصوله وفى مقدمتهم الإمام محمد عبده .

ومن عجائب المفارقات ذلك الحديث الذى جرى بين الأفغانى الفيلسوف المسلم وبين ارنست رينان المستشرق الفرنسى الشهير، فقد رأى رينان أن يلقى محاضرة فى السوربون فى مارس سنة ١٨٨٣ أثناء إقامة الأفغانى فى باريس، وكان موضوعها (الاسلام والعلم) .

وقال رينان فى هذه المحاضرة إن الإسلام لا يشجع الجهود العلمية، بل هو عائق لها بما فيه من اعتقاد بالغيبيات وخوارق العادات، وإيمان تام بالقضاء والقدر .

ورد عليه جمال الدين الأفغانى فى جريدة Journal des debats
ودارت مناقشات عنيفة بين الأفغانى وبين رينان أثارت الرأى العام الفرنسى

حينئذاك . وكانت خلاصتها رسالته الصغيرة (القضاء والقدر) التى نشرت مع رسالة الرد على الدهريين .

وقد وضع الفيلسوف الحد الفاصل بين عقيدة القضاء والقدر وبين فكرة الجبرية الدخيلة على الفكر الإسلامى . ورغم ذلك لم يستطع باحث مسلم مثل الدكتور محمد البهى إدراك هذه الحقيقة ، ونسب إلى الشيخ محمد عبده مالم يقله الأستاذ الإمام وجعله يتفوق على أستاذه ، مع أن الإمام محمد عبده قال مراراً : إن كل ما كان يكتبه هو أفكار أستاذه جمال الدين .

ومهما يكن من أمر فقد استطاع الفيلسوف الأفغانى أن يقف أمام رينان وأن يرده رداً مفحما بقلمه تارة ، وبأفكاره التى كتبها الشيخ محمد عبده تارة أخرى .

ولكن المؤكد بعد ذلك هو أن الفيلسوف الأفغانى استطاع وضع الحد الفاصل بين القضاء والقدر وبين الجبرية ، وهذا هو أساس التفكير الفلسفى الإسلامى الحديث الذى تلقفه الكتاب والمؤلفون ورددوه بعد الشيخ جمال الدين .

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٦٩/٣٣١٨

دار الهنا للطباعة ت : ٧١٣٢٧

مطبوعات جماعة الأمناء
دار الجمعية الأدبية المصرية
١٢ شارع عرابى بالقاهرة

الثمن ٢٥ قرشا



دار الهنا للطباعة ت : ٧١٣٢٧